A.U.B. LIBRARY

297.3
A138A
1924
C.1

رسالة التوحيد

تأليف

المرحوم المغفور له الشيخ محمد عبده المصري مفتي
الديار المصرية المتوفى يوم الثلاثاء ٨ جمادى
الاولى سنة ١٣٢٣ هـ الموافق ١١ يوليو
سنة ١٩٠٥ م تغمده الله برحمته
وأسكنه فسيح جنته

(حقوق الطبع محفوظة للملتزم)

الطبعة الثانية

على نفقة محل تجارة السيد عمر حسين الخشاب وولده سنة ١٣٤٣ هـ
بالمطبعة الخيرية ادارة السيد « محمد عمر الخشاب »
حفظه الله ووفقه لما فيه الخير والصواب آمين
تأسست المطبعة المذكورة باذن عمرة سنة ١٣٠٢ هـ

48188

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين

﴿ وبعد ﴾ فلما كنت فى بيروت من أعمال سوريا أيام بعدى عن مصر عقب حوادث سنة ١٢٩٩ هجريه ودعيت فى سنة ١٣٠٣ لتدريس بعض العلوم فى المدرسة السلطانية ومنها كان علم التوحيد رأيت أن المختصرات فى هذا الفن قد لا تأتى على الغرض من افادة التلامذة والمطولات تعلو عن أفهامهم والمتوسطات الفت لزمن غير زمانهم فرأيت من الاليق أن أملى عليهم ماهو أمس بحالهم فكانت أمالى مختلفة تتغاير بتغاير طبقاتهم أقربها الى كفاية الطالب ماأملى على الفرقة الاولى فى أسلوب لا يصعب تناوله وان لم يعهد تداوله تمهيد مقدمات وسير منها الى المطالب من غير نظر الا الى صحة الدليل وان جاء فى التعبير على خلاف ماعهد من هيئة التأليف راميا الى الخلاف من مكان بعيد حتى قد لا يدركه الا الرجل الرشيد غير ان تلك الامالى لم تحفظ الا فى دفاتر التلامذة ولم أستبق لنفسى منها شيأ وعرض بعد ذلك

ما استقدمني الى مصر وكان من تقدير الله ان اشتغل بغير التعليم حتى أتى النسيان على ما أمليت وذهب عن الخاطر جميع ما ألقيت الى ان خطر لي من مدة اشهر خاطر العود الى ما تهواه نفسي و يصبو اليه عقلي وحسي وان اشغل اوقات فراغي بمدارسة شيء من علم التوحيد علمت مني انه ركن العلم الشديد فذكرت سابق العمل وتعلق بمثله الامل ولكيلا أنفق من الزمن ما أتاني اشد الحاجة اليه في انشاء ما أرى التعويل عليه عزمت ان أكتب الى بعض التلامذة ليرسل الي ما تلقاه بين يدي وذكرت ذلك لاخي فاخبرني انه نسخ ما املى على الفرقة الاولى فطلبته وقرأته فاذا هو على مقربة مما احب قد يحتاج اليه القاصر وربما لا يستغني عنه المكاثر على اختصار فيه مقصود ووقوف عند حد من القول محدود قد سلك في العقائد مسلك السلف ولم يعب في سيره آراء الخلف و بعد عن الخلاف بين المذاهب بعد مليه عن اعاصير المشاغب لكن وجدت فيه ايجازا في بعض المواضع قد لا ينفذ منه ذهن المطالع واغفالا لبعض ما تمس الحاجة اليه و زيادة مما يجب في مختصر مثله ان يقتصر عليه فبسطت بعض عباراته وحررت ما غمض من مقدماته و زدت ما أغفل وحذفت ما فضل و توكلت على الله في نشره راجيا ان لا يكون في قصره ما يحمل على اغفال امره او يغض من قدره فما من احد باصغر من ان يعين ولا بأكبر من ان يعان والله وحده ولي الامر وهو المستعان

مقدمات

التوحيد علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب ان يثبت له من صفاته وما يجوز ان يوصف به وما يجب ان ينفى عنه وعن الرسل لاثبات رسالتهم وما يجب ان يكونوا عليه وما يجوز ان ينسب اليهم وما يمتنع ان يلحق بهم أصل معنى التوحيد اعتقاد ان الله واحد لا شريك له وسمي هذا العلم به تسمية له بأهم اجزائه وهو اثبات الوحدة لله في الذات والفعل في خلقة الاكوان وانه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد

وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كما تشهد به آيات الكتاب العزيز وسيأتي بيانه وقد يسمى علم الكلام اما لان اشهر مسئلة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون الاولى هي ان كلام الله المتلو حادث او قديم واما لان مبناه الدليل العقلي وأثره يظهر من كل متكلم في كلامه وقلما يرجع فيه الى النقل اللهم الا بعد تقرير الاصول الاولى ثم الانتقال منها الى ما هو أشبه بالفرع عنها وان كان أصلا لما يأتي بعدها واما لانه في بيان طرق الاستدلال على اصول الدين اشبه بالمنطق في تبيينه مسالك الحجة في علوم اهل النظر وابدل المنطق بالكلام للتفرقة بينهما

هذا النوع من العلم علم تقرير العقائد وبيان ما جاء في النبوات كان معروفا عند الامم قبل الاسلام في كل امة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده وكان البيان من اول وسائلهم الى ذلك لكنهم كانوا قلما يحتون في بيانهم نحو الدليل العقلي وبناء آرائهم وعقائدهم على ما في طبيعة الوجود او ما يشتمل عليه نظام الكون بل كانت منازع المقول في العلم ومضارب الدين في الالزام بالعقائد وتقريبها من مشاعر القلوب على طرق تفيض وكثيرا ما صرح الدين على لسان رؤسائه انه عدو العقل تقائحه ومقدماته فكان جل ما في علوم الكلام تأويل وتفسير وادهاش بالمعجزات او إلهاء بالخيالات يعلم ذلك من له إلمام بأحوال الامم قبل البعثة الاسلامية

جاء القرآن فانتهج بالدين منهجا لم يقم عليه ما سبقه من الكتب المقدسة منهجا يمكن لاهل الزمن الذي أنزل فيه ولمن يأتي بعدهم ان يقوموا عليه فترك الاستدلال على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم بما عهد الاستدلال به على النبوات السابقة وحصر الدليل في حال النبي مع نزول الكتاب عليه في شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ولو في مثل اقصر سورة منه وتناول من مقام الالوهية ما أذن الله له

اوما أوجب علينا ان نعلم لكن لم يطيب التسليم به لمجرد انه جاء بحكايته ولكنه ادعى
و برهن وحكى مذاهب المخالفين وكر عليها بالحجة وخاطب العقل واستنهض
الفكر وعرض نظام الاكوان ومافيها من الاحكام والاتقان على أنظار العقول
وطالبها بالامعان فيها لتصل بذلك الى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا اليه حتى انه في
سياق قصص احوال السابقين كان يقرر ان للخلقة سنة لا تغير وقاعدة لا تتبدل
فقال (سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وصرح (ان الله
لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) واعتضد بالدليل حتى في باب الادب فقال
(ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كانه ولي حميم) وناخى العقل
والدين لاول مرة في كتاب مقدس على لسان نبي مرسل بتصريح لا يقبل التأويل
وقرر بين المسلمين كافة الامن لائمة بعقله ولا بدينه ان من قضايا الدين ما لا يمكن
الاعتقاد به الا من طريق العقل كالعلم بوجود الله وبقدرته على ارسال الرسل
وعلمه بما يوحي به اليهم وارادته لاختصاصهم برسالته وما يتبع ذلك مما يتوقف
عليه فهم معنى الرسالة وكالتصديق بالرسالة نفسها كما أجمعوا على ان الدين ان جاء بشيء
قد يعلو على الفهم فلا يمكن ان يأتي بما يستحيل عند العقل

جاء القرآن يصف الله بصفات وان كانت اقرب الى التنزيه مما وصف به في
مخاطبات الاجيال السابقة فمن صفات البشر ما يشاركها في الاسم أو في الجنس
كالقدرة والاختيار والسمع والبصر وعزا اليه أمورا يوجد ما يشبهها في
الانسان كالاستواء على العرش وكالوجه واليدين ثم أفاض في القضاء السابق وفي
الاختيار الممنوح للانسان وجادل الغالين من اهل المذهبين ثم جاء بالوعد والوعيد
على الحسنات والسيآت وكل الامر في الثواب والعقاب الى مشيئة الله وامثال
ذلك مما لا حاجة الى بيانه في هذه المقدمة فاعتبار حكم العقل مع ورود امثال
هذه المتشابهات في النقل فسح مجالا للناظرين خصوصا ودعوة الدين الى الفكر

فى المخلوقات لم تكن محدودة بحدود ولا مشروطة بشرط للعلم بأن كل نظر صحيح فهو مؤد الى الاعتقاد بالله على ما وصفه بلا غلو فى التجريد ولا دنو من التحديد

مضى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وهو المرجع فى الحيرة والسراج فى ظلمات الشبهة وقضى الخليفتان بعده ما قدر لهما من العمر فى مدافعة الاعداء وجمع كلمة الاولياء ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع عقولهم ليبتلوها بالبحث فى مبانى عقائدهم وما كان من اختلاف قليل رد اليهما وقضى الامر فيه بحكمهما بعد استشارة من جاورهما من اهل البصر بالدين ان كانت حاجة الى الاستشارة وأغلب الخلاف كان فى فروع الاحكام لا فى اصول العقائد ثم كان الناس فى الزمنين يفهمون اشارات الكتاب ونصوصه يعتقدون بالتنزيه ويفوضون فيما يوهم التشبيه ويرون أن له معنى غير ما يفهمه ظاهر اللفظ

كان الامر على ذلك الى ان حدث ما حدث فى عهد الخليفة الثالث وأفضى الى قتله هوى بتلك الاحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة واصطدم الاسلام باهله صدمة زعزعتهم عن الطريق التى استقاموا عليها وبقى القرآن قائما على صراطه (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) وفتح للناس باب لتعدى الحدود التى حدها الدين فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعى واشعر الامر قلوب العامة ان شهوات تلاعبت بالعقول فى أنفس من لم يملك الايمان قلوبهم وغلب الغضب على كثير من الغالين فى دينهم وتغلب هؤلاء وأولئك على اهل الاصالة منهم فقضيت أمور على غير ما يحبون

وكان من العاملين فى تلك الفتنة عبد الله بن سبا يهودى أسلم وغالى فى حب على كرم الله وجهه حتى زعم ان الله حل فيه واخذ يدعو الى انه الاحق بالخلافة وطعن على عثمان فنفاه الى مصر فوجد فيها اعوانا على فتنته الى ان كان ما كان مما ذكرنا ثم ظهر بمذهبه فى عهد على فنفاه الى المدائن وكان رأيه جرثومة لما حدث من

مذاهب الغلاة من بعده توالت الاحداث بعد ذلك ونقض بعض المبايعين للخليفة الرابع ماعقدوا وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر السلطان الى الامويين غير أن بناء الجماعة قد انصدع وانفصمت عرى الوحدة بينهم وتفرقت بهم المذاهب في الخلافة واخذ الاحزاب في تأييد آرائهم كل ينصر رأيه على رأي خصمه بالقول والعمل وكانت نشأة الاختراع في الرواية والتأويل وغلا كل قبيل فافترق الناس الى شيعة وخوارج ومعتدلين وغلا الخوارج في عهد مروان الاول فكفروا من عداهم ثم استمر عنادهم وطلبهم لحكومة اشبه بالجمهورية وتكفيرهم لمن خالفهم زمنا طويلا الى ان تضعضع امرهم على يد المهلب بن ابي صفرة وانتشرت فارتهم في بلاد المغرب فاشعلوا فيها الفتن وبقيت منهم بقية الى اليوم في اطراف افريقيا وناحية من جزيرة العرب وغلا بعض الشيعة فرفعوا عليا أو بعض ذريته الى مقام الالوهية أو ما يقرب منه وتبع ذلك خلاف في كثير من العقائد

غير ان شيأ من ذلك لم يقف في سبيل الدعوة الاسلامية ولم يحجب ضياء القرآن عن الاطراف المتنائية عن مثار النزاع وكان الناس يدخلون فيه افواجا من الفرس والسوريين ومن جاورهم والمصريين والافريقيين ومن يليهم واستراح جمهور عظيم من العمل في الدفاع عن سلطان الاسلام وآن لهم ان يشتغلوا في اصول العقائد والاحكام بما هداهم اليه سير القرآن اشتغالا لا يحرص فيه على النقل ولا يهمل فيه اعتبار العقل ولا يغض فيه من نظار الفكر ووجد من اهل الاخلاص من انتدب نفسه للنظر في العلم والقيام بفريضة التعليم ومن اشهرهم الحسن البصري فكان له مجلس للتعليم والافادة في البصرة يجتمع اليه الطالبون من كل صوب وتمتحن فيه المسائل من كل نوع وكان قد التحف بالاسلام ولم يتبطنه اناس من كل ملة دخلوه حاملين لما كان عندهم راغبين ان يصلوا بينه وبين ما وجدوه فثارت الشبهات

بعد ما هبت على الناس اعاصير الفتن واعتمد كل ناظر على ما صرح به القرآن من اطلاق العنان للفكر وشارك الدخلاء من حق لهم السبق من العرفاء وبدت رؤس المشاقين تعلو بين المسلمين وكانت أول مسئلة ظهر الخلاف فيها مسئلة الاختيار واستقلال الانسان بارادته وافعاله الاختيارية ومسئلة من ارتكب الكبيرة ولم يتب اختلف فيها واصل بن عطاء مع استاذه الحسن البصرى واعتزله يعلم اصولا لم يكن اخذها عنه غيره ان كثيرا من السلف ومنهم الحسن على قول كان على رأى ان العبد مختار فى اعماله الصادرة عن علمه وارادته وقام ينازع هؤلاء اهل الجبر الذين ذهبوا الى ان الانسان فى عمله الارادى كاغصان الشجرة في حركاتها الاضطرارية كل ذلك وارباب السلطان من بنى مروان لا يحفلون بالامر ولا يمنون برد الناس الى أصل وجمعهم على أمر يشملهم ثم يذهب كل الى ماشاء ثم لم يقف الخلاف عند المسئلتين السابقتين بل امتد الى اثبات صفات المعانى للذات الالهية أو نفيها عنها والى تقدير سلطة العقل فى معرفة جميع الاحكام الدينية حتى ما كان منها مروعا وعبادات (غلوا فى تأييد خطة القرآن) أو تخصيص تلك السلطة بالاصول الاولى على ماسبق بيانه ثم غالى آخرون وهم الاقلون فمحوها بالمرة وخالفوا فى ذلك طريقة الكتاب عناد الاولين وكانت الاراء فى الخلفاء والخلافة تسير مع الاراء فى العقائد كانها مبنى من مبانى الاعتقاد الاسلامى

تفرقت السبل باتباع واصل وتناولوا من كتب اليونان مالاق بعقولهم وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما أثبته العلم بدون تفرقة بين ما كان منه راجعا الى أوليات العقل وما كان سرابا فى نظر الوهم فخلطوا بمعارف الدين مالا ينطبق حتى على اصل من اصول النظر ولجوا فى ذلك حتى صارت شيعهم تعد بالعشرات أيدتهم الدولة العباسية وهى فى ريعان القوة فغلب رأيهم وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب فأخذ المتمسكون بمذاهب السلف يناضلونهم معتصمين بقوة اليقين وان لم يكن

لهم عضد من الحاكمين

عرف الاولون من العباسيين ما كان من الفرس فى اقامة دولتهم وقلب دولة الامويين واعتمدوا على طلاب الانصار فيهم واعدوا لهم منصات الرفعة بين وزرائهم وحواشيهم فعلا امر كثير منهم وهم ليسوا من الدين فى شئ وكان فيهم المانوية واليزدية ومن لا دين له وغيرأولئك من الفرق الفارسية فأخذوا ينفثون من افكارهم و يشيرون بحالهم وبمقالهم الى من يرى مثل آرائهم أن يقتدوا بهم فظهر الالحاد وتطلعت رؤس الزندقة حتى صدر امر المنصور بوضع كتب لكشف شبهاتهم وابطال مزاعمهم

فيما حوالى هذا العهد كانت نشأة هذا العلم نبتا لم يتكمل مل نموه و بناء لم يتشامخ علوه وبدأ كما انتهى مشوبا بمبادىء النظر فى الكائنات جريا على ما سنه القرآن من ذلك وحدثت فتنة القول بخلق القرآن أو ازليته وانتصر للاول جمع من خلفاء العباسيين وامسك عن القول أو صرح بالازلية عدد غفير من المتمسكين بظواهر الكتاب والسنة أو المتعففين عن النطق بما فيه مجاراة البدعة واهين فى ذلك رجال من اهل العلم والتقوى وسفكت فيه دماء بغير حق وهكذا تعدى القوم حدود الدين باسم الدين على هذا كان النزاع بين ما تطرف من نظر العقل وما توسط أو غلا من الاستمساك بظاهر الشرع والكل على وفاق على ان الاحكام الدينية واجبة الاتباع ما تعلق منها بالعبادات والمعاملات وجب الوقوف عنده وما مس بواطن القلوب وملكات النفوس فرض التروض عليه وكان وراء هؤلاء قوم من اهل الحلول أو الدهريين طلبوا ان يحملوا القرآن على ما حملوه عند التحافهم بالاسلام وافرطوا فى التأويل وحولوا كل عمل ظاهر الى سر باطن وفسروا الكتاب بما يبعد عن تناول الخطاب بعدا لخطا عن الصواب وعرفوا بالباطنية أو الاسماعيلية ولهم اسماء اخر تعرف فى التاريخ فكانت مذاهبهم غائلة الدين وزلزال اليقين وكانت لهم فتن

معروفة وحوادث مشهورة

مع اتفاق السلف وخصومهم في مقارعة هؤلاء الزنادقة واشياعهم كان امر الخلاف بينهم جللا وكانت الايام بينهم دولا ولا يمنع ذلك من اخذ بعضهم عن بعض واستفادة كل فريق من صاحبه الى ان جاء الشيخ أبو الحسن الاشعري في اوائل القرن الرابع وسلك مسلكه المعروف وسطا بين موقف السلف وتطرف من خالفهم واخذ يقرر العقائد على اصول النظر وارتاب في امره الاولون وطعن كثير منهم على عقيدته وكفره الحنابلة واستباحوا دمه ونصره جماعة من اكابر العلماء كامام الحرمين والاسفرايني وابي بكر الباقلاني وغيرهم وسموا رأيه بمذهب اهل السنة والجماعة فانهزم من بين ايدي هؤلاء الافاضل قوتان عظيمتان قوة الواقفين عند الظواهر وقوة الغالين في الجرى خلف ما تزينه الخواطر ولم يبق من أولئك وهؤلاء بعد نحو قرنين إلا فئات قليلة في أطراف البلاد الاسلامية

غير ان الناصرين لمذهب الاشعري بعد تقريرهم ما بنى رأيه عليه من نواميس الكون أوجبوا على المعتقد أن يوقن بتلك المقدمات ونتائجها كما يجب عليه اليقين بما تؤدي اليه من عقائد الايمان ذهابا منهم الى ان عدم الدليل يؤدي الى عدم المدلول ومضى الامر على ذلك الى ان جاء الامام الغزالي والامام الرازي ومن اخذ مأخذهم فخالفوهم في ذلك وقرروا ان دليلا واحدا أو ادلة كثيرة قد يظهر بطلانها ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو اقوى منها فلا وجه للحجر في الاستدلال

اما مذاهب الفلسفة فكانت تستمد آراءها من الفكر المحض ولم يكن من هم اهل النظر من الفلاسفة الا تحصيل العلم والوقاء بما يندفع اليه رغبة العقل من كشف مجهول او استكناه معقول وكان يمكنهم ان يبلغوا من مطالبهم ما شاؤا وكان

الجمهور من اهل الدين يكنفهم بحمايته ويدفع لهم من اطلاق الارادة مما يتمتعون به في تحصيل لذة عقولهم وافادة الصناعة وتقوية أركان النظام البشري بما يكشفون من مستتير الاسرار المكنونة في ضمائر الكون مما اباح الله لنا ان نتناوله بعقولنا وافكارنا في قوله (خلق لكم ما في الارض جميعا) اذ لم يستثن من ذلك ظاهرا ولا خفيا وما كان عاقل من عقلاء المسلمين ليأخذ عليهم الطريق أو يضع العقاب في سبيلهم الى ما هدوا اليه بعد ما رفع القرآن من شأن العقل وما وضعه من المكانة بحيث ينتهي اليه امر السعادة والتمييز بين الحق والباطل والضار والنافع وبعد ما صح من قوله عليه السلام انتم أعلم بشؤون دنياكم وبعد ما سن لنا في غزوة بدر من سنة الاخذ بما صدق من التجارب وصح من الآراء

لكن يظهر ان امرين غلبا على غالبهم الاول الاعجاب بما نقل اليهم عن فلاسفة اليونان خصوصا عن ارسطو وافلاطون ووجدان اللذة في تقليدهما البادي الامر والثاني روح الوقت وهو اشأم الامرين زجوا بأنفسهم في المنازعات التي كانت قائمة بين اهل النظر في الدين واصطدموا بعلومهم في قلة عددهم مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة فمال حماة العقائد عليهم وجاء الغزالي ومن على طريقته فأخذوا جميع ما وجد في كتب الفلاسفة مما يتعلق بالالهيات وما يتصل بها من الامور العامة او احكام الجواهر والاعراض ومذاهبهم في المادة وتركيب الاجسام وجميع ما ظنه المشتغلون بالكلام بمس شيء من مباني الدين واشتدوا في نقدهم وبالغ المتأخرون منهم في تأثرهم حتى كاد يصل بهم السير الى ما وراء الاعتدال فسقطت منزلتهم من النفوس ونبذتهم العامة ولم تحفل بهم الخاصة وذهب الزمان بما كان ينتظر العالم الاسلامي من سعيهم

هذا هو السبب في خلط مسائل الكلام بمذاهب الفلسفة في كتب المتأخرين كما تراه في كتب البيضاوي والعضد وغيرهم وجمع علوم نظرية شتى وجعلها

جميعا علما واحدا والذهاب بمقدماته ومباحثه الى ماهو اقرب الى التقليد من النظر

فوقف العلم عن التقدم

ثم جاءت فئة طلاب الملك من الاجيال المختلفة وتغلب الجهال على الامر وفتكوا بما بقي من اثر العلم النظر النابع من عيون الدين الاسلامي فانحرفت الطريق بسالكيها ولم يعد بين الناظرين في كتب السابقين الا تحاور في الالفاظ وتناظر في الاساليب على ان ذلك في قليل من الكتب اختارها الضعف وفضلها القصور ثم انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجهلة من سياستهم فجاء قوم ظنوا في أنفسهم مالم يعترف به العلم لهم فوضعوا مالم يعد للاسلام قبل باحتماله غير انهم وجدوا من نقص المعارف أنصارا ومن البعد عن ينابيع الدين أعوانا فشردوا بالعقول عن مواطنها وتحكموا في التضليل والتكفير وغلوا في ذلك حتى قالوا بعض من سبق من الامم في دعوى العداوة بين العلم والدين وقالوا ما تصف السنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام وهذا كفر وهذا اسلام والدين من وراء مايتوهمون والله جل شأنه فوق مايظنون ومايصفون ولكن ماذا أصاب العامة في عقائدهم ومصادر أحكامهم من أنفسهم بعد طول الخبط وكثرة الخلط شر عظيم وخطب جسيم هذا مجمل من تاريخ هذا العلم ينبئك كيف اسس على قواعد من الكتاب المبين وكيف عبثت به في نهاية امره ايدي المفرقين حتى خرجوا به عن قصده وبعدوا به عن حده

والذي علينا اعتقاده ان الدين الاسلامي دين توحيد في العقائد لا دين تفريق في القواعد العقل من أشد أعوانه والنقل من أقوى اركانه وماوراء ذلك فنزغات شياطين اوشهوات سلاطين والقرآن شاهد على كل بعمله قاض عليه في سوابه وخطله

الغاية من هذا العلم القيام بفرض يجمع عليه وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب

تنبوتها له مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به والتصديق برسله على وجه اليقين الذى تطمئن به النفس اعتمادا على الدليل لا استرسالا مع التقليد حسبما ارشدنا اليه الكتاب فقد امر بالنظر واستعمال العقل فيما بين ايدينا من ظواهر الكون وما يمكن النفوذ اليه من دقائقه تحصيلا لليقين بما هدانا اليه ونهانا عن التقليد بما حكى عن احوال الامم فى الاخذ بما عليه آباؤهم وتشييع ما كانوا عليه من ذلك واستتباعه لهدم معتقداتهم وانحاء وجودهم الملى وحق ما قال فان التقليد كما يكون فى الحق يأتى فى الباطل وكما يكون فى النافع يحصل فى الضار فهو مضلة يعذر فيها الحيوان ولا تجمل بحال الانسان

أقسام المعلوم

يقسمون المعلوم الى ثلاثة اقسام ممكن لذاته وواجب لذاته ومستحيل لذاته ويعرفون المستحيل بما عدمه لذاته من حيث هى أما الواجب فهو ما كان وجوده لذاته من حيث هى والممكن ما لا وجود له ولا عدم من ذاته وانما يوجد لوجد ويعدم لعدم سبب وجوده وقد يعرض له الوجوب والاستحالة لغيره واطلاق المعلوم على المستحيل ضرب من المجاز فان المعلوم حقيقة لا بد ان يكون له كون فى الواقع ينطبق عليه العلم والمستحيل ليس من هذا القبيل كما نراه فى احكامه وانما المراد ما يمكن الحكم عليه وان فى صورة يخترعها له العقل ليتوصل بها الى الحكاية عنه

حكم المستحيل

وحكم المستحيل لذاته ان لا يطرأ عليه وجود فان العدم من لوازم ماهيته من حيث هى فلو طرأ الوجود عليه لسلب لازم الماهية من حيث هى عنها وهو يؤدى الى سلب الماهية عن نفسها بالبداهة فالمستحيل لا يوجد فهو ليس بموجود قطعا بل لا يمكن للعقل ان يتصور له ماهية كائنة كما اشرنا اليه فهو ليس بموجود حتى ولا

في الذهن

احكام الممكن

من احكام الممكن لذاته ان لا يوجد الا بسبب وان لا ينعدم الا بسبب وذلك لانه لا واحد من الامرين له لذاته فنسبتهما الى ذاته على السواء فان ثبت له احدهما بلا سبب لزم رجحان احد المتساويين على الآخر بلا مرجح وهو محال بالبداهة

ومن احكامه انه ان وجد يكون حادثا لانه قد ثبت الا انه لا يوجد الا بسبب فاما ان يتقدم وجوده على وجود سببه او يقارنه او يكون بعده والاول باطل والا لزم تقدم المحتاج على ما اليه الحاجة وهو ابطال لمعنى الحاجة وقد سبق الاستدلال على ثبوتها فيؤدى الى خلاف المفروض والثانى كذلك والا لزم تساويهما في رتبة الوجود فيكون الحكم على احدهما بانه اثر والثانى مؤثر ترجيحا بلا مرجح وهو مما لا يسوغه العقل على ان علية احدهما ومعلولية الآخر رجحان بلا مرجح وهو محال بالبداهة فتعين الثالث وهو ان يكون وجوده بعد وجود سببه فيكون مسبوقا بالعدم في مرتبة وجود السبب فيكون حادثا اذ الحادث ما سبق وجوده بالعدم فكل ممكن حادث

الممكن لا يحتاج في عدمه الى سبب وجودي لان العدم سلب والسلب لا يحتاج الى ايجاد بداهة فيكون عدم الممكن لعدم التأثير فيه او لعدم ما كان سببا في بقائه أما في وجوده فيحتاج الى سبب وجودي ضرورة لان العدم لا يكون مصدرا للوجود فالموجود ان حدث فانما يكون حدوثه بايجاد وذلك كله بديهي

كما يحتاج الممكن للسبب في وجوده ابتداء يحتاج اليه في البقاء لما بينا ان ذات الممكن لا تقتضي الوجود ولا يرجح لها الوجود عن العدم الا للسبب الخارجي الوجودي فذلك لازم من لوازم ماهية الامكان لا يفارقها من حيث هي فلا يكون للممكن حالة يقتضي فيها الوجود لذاته فيكون في جميع احواله محتاجا الى مرجح الوجود عن

العدم لا فرق بين الابتداء والبقاء

معنى السبب على ماذكرنا منشأ الايجاد ومعطى الوجود وهو الذى يعبر عنه بالموجد وبالعلة الموجدة وبالعلة الفاعلة وبالفاعل الحقيقى ونحو ذلك من العبارات التى تختلف مبانيها ولا تتباين معانيها وقد يطلق السبب أحيانا على الشرط او المعد الذى يهيئ الممكن لقبول الايجاد من موجده وهو بهذا المعنى قد يحتاج اليه فى الابتداء ويستغنى عنه فى البقاء وقد تكون الحاجة الى وجوده ثم عدمه ومن هذا القبيل وجود البناء فانه شرط فى وجود البيت وقد يموت البناء ويبقى بناؤه وليس البناء واهب الوجود للبيت وانما حركات يديه وحركات ذهنه واطوار ارادته شرط لوجود البيت على هيئته الخاصة به وبالجملة فيوجد فرق بين توقف الممكن على شئ وبين استفادته الوجود من شئ فالتوقف قد يكون على وجود ثم عدم كما فى توقف الخطوة الثانية على الاولى فان الاولى ليست واهبة الوجود للثانية والا وجب وجودهما معا مع ان الثانية لا توجد الا اذا انعدمت الاولى أما استفادة الوجود فتقتضى سبق مالك للوجود يعطيه للمستفيد منه وان يكون وجود المستفيد مستمدا من وجود الواهب لا يقوم الا به فلا يستقل بنفسه دونه فى حال من الاحوال

الممكن موجود قطعا

نرى أشياء توجد بعد ان لم تكن وأخرى تنعدم بعد ان كانت كاشخاص النباتات والحيوانات فهذه الكائنات إما مستحيلة او واجبة او ممكنة لا سبيل الى الاول لان المستحيل لا يطرأ عليه الوجود ولا الى الثانى لان الواجب له الوجود من ذاته وما بالذات لا يزول فلا يطرأ عليه العدم ولا يسبقه كما سيجئ فى احكام الواجب فهى ممكنة فالممكن موجود قطعا

وجود الممكن يقتضى بالضرورة وجود الواجب

جملة الممكنات الموجودة ممكنة بداهة وكل ممكن محتاج الى سبب يعطيه الوجود فجملة الممكنات الموجودة محتاجة بتمامها الى موجد لها فاما ان يكون عينها وهو محال لاستلزامه تقدم الشيء على نفسه وإما أن يكون جزأها وهو محال لاستلزامه أن يكون الشيء سببا لنفسه ولما سبقه ان لم يكن الاول ولنفسه فقط ان فرض أولويته بطلانه ظاهر فوجب ان يكون السبب وراء جملة الممكنات والموجود الذي ليس بممكن هو الواجب اذ ليس وراء الممكن الا المستحيل والواجب والمستحيل لا يوجد فبقي الواجب فثبت ان للممكنات الموجودة موجدا واجب الوجود وايضا الممكنات الموجودة سواء كانت متناهية أو غير متناهية قائمة بوجود فذلك الوجود إما أن يكون مصدره ذات الامكان وماهيات الممكنات وهو باطل لما سبق في احكام الممكن من انه لا شيء من الماهيات الممكنة بمقتض للوجود فتعين ان يكون مصدره سواها وهو الواجب بالضرورة

أحكام الواجب

القدم والبقاء ونفي التركيب

من احكام الواجب ان يكون قديما أزليا لانه لو لم يكن كذلك لكان حادثا والحادث ماسبق وجوده بالعدم فيكون وجوده مسبوقا بعدم وكل ماسبق بالعدم يحتاج الى علة تعطيه الوجود والا لزم رجحان المرجوح بلا سبب وهو محال فلو لم يكن الواجب قديما لكان محتاجا في وجوده الى موجد غيره وقد سبق ان الواجب ما كان وجوده لذاته فلا يكون ما فرض واجبا واجبا وهو تناقض محال ومن احكامه ان لا يطرأ عليه عدم وإلا لزم سلب ماهو للذات عنها وهو يعود الى سلب الشيء عن نفسه وهو محال بالبداهة

من احكامه ان لا يكون مركبا اذ لو تركب لتقدم وجود كل جزء من اجزائه على وجود جملته التي هي ذاته وكل جزء من اجزائه غير ذاته بالضرورة فيكون وجود

جملته محتاجا الى وجود غيره وقد سبق ان الواجب ما كان وجوده لذاته ولا نه لو تركب لكان الحكم له بالوجود موقوفا على الحكم بوجود اجزائه وقد قلنا إنه له لذاته من حيث هي ذاته ولا نه لا مرجح لان يكون الوجوب له دون كل جزء من اجزائه بل يكون الوجوب لما ارجح فتكون هي الواجبة دونه

نفي التركيب في الواجب شامل لما يسمونه حقيقة عقلية أو خارجية فلا يمكن للعقل ان يحاكي ذات الواجب بمركب فان الاجزاء العقلية لا بد لها من منشأ انتزاع في الخارج فلو تركبت الحقيقة العقلية لكانت الحقيقة مركبة في الخارج والا كانت ما فرض حقيقة عقلية اعتبارا كاذب الصدق لا حقيقة

كما لا يكون الواجب مركبا لا يكون قابلا للقسمة في احد الامتدادات الثلاث أي لا يكون له امتداد لانه لو قبل القسمة لعادها الى غير وجوده الاول وصار الى وجودات متعددة وهي وجودات الاجزاء الحاصلة من القسمة فيكون ذلك قبولا للعدم أو تركبا وكلاهما محال كما سبق

الحياة

معنى الوجود وان كان بديهيا عند العقل ولكنه يتمثل له بالظهور ثم الثبات والاستقرار وكمال الوجود وقوته بكمال هذا المعنى وقوته بالبداهة

كل مرتبة من مراتب الوجود تستتبع بالضرورة من الصفات الوجودية ما هو كمال لتلك المرتبة في المعنى السابق ذكره والا كان الوجود لمرتبة سواها وقد فرض لها ما يتجلى للنفس من مثل الوجود لا ينحصر واكمل مثال في اي مراتبه ما كان مقرونا بالنظام والكون على وجه ليس فيه خلل ولا تشويش فان كان ذلك النظام بحيث يستتبع وجودا مستمرا وان في النوع كان ادل على كمال المعنى الوجودي في صاحب المثال

فان تجلت للنفس مرتبة من مراتب الوجود على ان تكون مصدر الكل نظام كان ذلك عنوانا على انها أكمل المراتب واعلاها وأرفعها وأقواها

وجود الواجب هو مصدر كل وجود ممكن كما قلنا وظهر بالبرهان القاطع فهو بحكم ذلك أقوى الوجودات وأعلاها فهو يستتبع من الصفات الوجودية ما يلائم تلك المرتبة العليا وكل ما تصوره العقل كمالا في الوجود من حيث ما يحيط به من معنى الثبات والاستقرار والظهور وامكن ان يكون له وجب ان يثبت له وكونه مصدرا للنظام وتصريف الاعمال على وجه لا اضطراب فيه يعد من كمال الوجود كما ذكرنا فيجب ان يكون ذلك ثابتا له فالوجود الواجب يستتبع من الصفات الوجودية التي تقتضيها هذه المرتبة ما يمكن ان يكون له

فمما يجب ان يكون له صفة الحياة وهي صفة تستتبع العلم والارادة وذلك انا الحياة مما يعتبر كمالا للوجود بداهة فان الحياة مع ما يتبعها مصدر النظام وناموس الحكمة وهي في اي مراتبها مبدأ الظهور والاستقرار في تلك المرتبة فهي كمال وجودي و يمكن ان يتصف بها الواجب وكل كمال وجودي يمكن ان يتصف به وجب ان يثبت له فواجب الوجود حي وان باينت حياته حيات الممكنات فان ما هو كمال للوجود انما هو مبدأ العلم والارادة ولو لم تثبت له هذه الصفة لكان في الممكنات ما هو أكمل منه وجودا وقد تقدم أنه أعلى الموجودات وأكملها فيه

والواجب هو واهب الوجود وما يتبعه فكيف لو كان فاقدا للحياة يعطيها فالحياة له كما انه مصدرها

العلم

ومما يجب له صفة العلم ويراد به ما به انكشاف شيء عند من ثبتت له تلك الصفة اي مصدر ذلك الانكشاف منه لان العلم من الصفات الوجودية التي تعد كمالا في الوجود و يمكن ان تكون للواجب وكل ما كان كذلك وجب ان يثبت له فواجب

الوجود عالم

ثم البداهة قاضية بأن العلم كمال فى الموجودات الممكنة ومن الممكنات من هو عالم فلو لم يكن الواجب عالما لكان فى الموجودات الممكنة ما هو أكمل من الموجود الواجب وهو محال كما قدمنا ثم هو واهب العلم فى عالم الامكان ولا يعقل ان مصدر العلم يفقده علم الواجب من لوازم وجوده كما ترى فيه لو على العلوم علو وجوده عن الوجودات فلا يتصور فى العلوم ما هو أعلى منه فيكون محيطا بكل ما يمكن علمه والا تصور العقل علما أشمل وهو انما يكون لوجود أكمل وهو محال ما هو لازم لوجود الواجب يفنى بفناه و يبقى ببقائه وعلم الواجب من لوازم وجوده فلا يفتقر الى شئ ما وراء ذاته فهو أزلى أبدى غنى عن الآلات وجولات الفكر وأفاعيل النظر فيخالف علوم الممكنات بالضرورة ما يوجد من الممكنات فهو موافق لما انكشف بذلك العلم والا لم يكن علما

من أدلة ثبوت العلم للواجب ما نشاهده فى نظام الممكنات من الاحكام والاتقان ووضع كل شئ فى موضعه وقرن كل ممكن بما يحتاج اليه فى وجوده و بقائه وذلك ظاهر لجلى النظر بما يشاهد فى الاعيان كبيرها وصغيرها علويها وسفليها فهذه الروابط بين الكواكب والنسب الثابتة بينها وتقدير حركاتها على قاعدة تكفل لها البقاء على الوضع الذى قدر لها والزام كل كوكب بمدار لو خرج عنه لاختل نظام عالمه او العالم بأسره وغير ذلك مما فصل فى علوم الهيئة الفلكية كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره

اعتبر بما تراه فى جزئيات النباتات والحيوانات من توفيتها قواها وايتائها ما تحتاج اليه فى تقويم وجودها من الآلات والاعضاء و وضع ذلك فى مواضعه من أبدانها وايداع غير الحساس منها كالنبات قوة الميل الى تناول ما يناسبه من الغذاء دون ما لا يلائمه فترى بزرة الحنظل تدفن بجوار حبة البطيخ فى ارض

فان تجلت للنفس مرتبة من مراتب الوجود على ان تكون مصدر الكل نظام كان ذلك عنوانا على انها أكمل المراتب واعلاها وأرفعها وأقواها

وجود الواجب هو مصدر كل وجود ممكن كما قلنا وظهر بالبرهان القاطع فهو بحكم ذلك أقوى الوجودات وأعلاها فهو يستتبع من الصفات الوجودية ما يلائم تلك المرتبة العليا وكل ما تصوره العقل كمالا في الوجود من حيث ما يحيط به من معنى الثبات والاستقرار والظهور وامكن ان يكون له وجب ان يثبت له وكونه مصدرا للنظام وتصريف الاعمال على وجه لا اضطراب فيه يعد من كمال الوجود كما ذكرنا فيجب ان يكون ذلك ثابتا له فالوجود الواجب يستتبع من الصفات الوجودية التي تقتضيها هذه المرتبة ما يمكن ان يكون له

فمما يجب ان يكون له صفة الحياة وهي صفة تستتبع العلم والارادة وذلك انا الحياة مما يعتبر كمالا للوجود بداهة فان الحياة مع ما يتبعها مصدر النظام وناموس الحكمة وهي في اي مراتبها مبدأ الظهور والاستقرار في تلك المرتبة فهي كمال وجودي و يمكن ان يتصف بها الواجب وكل كمال وجودي يمكن ان يتصف به وجب ان يثبت له فواجب الوجود حي وان باينت حياته حيات الممكنات فان ما هو كمال للوجود انما هو مبدأ العلم والارادة ولو لم تثبت له هذه الصفة لكان في الممكنات ما هو أكمل منه وجودا وقد تقدم أنه أعلى الموجودات وأكملها فيه

والواجب هو واهب الوجود وما يتبعه فكيف لو كان فاقدا للحياة يعطيها فالحياة له كما انه مصدرها

العلم

ومما يجب له صفة العلم ويراد به ما به انكشاف شيء عند من ثبتت له تلك الصفة اي مصدر ذلك الانكشاف منه لان العلم من الصفات الوجودية التي تعد كمالا في الوجود و يمكن ان تكون للواجب وكل ما كان كذلك وجب ان يثبت له فواجب

الوجود عالم

ثم البداهة قاضية بأن العلم كمال في الموجودات الممكنة ومن الممكنات من هو عالم فلو لم يكن الواجب عالما لكان في الموجودات الممكنة ما هو أكمل من الموجود الواجب وهو محال كما قدمنا ثم هو واهب العلم في عالم الامكان ولا يعقل ان مصدر العلم يفقده علم الواجب من لوازم وجوده كما ترى فيعلو على العلوم علو وجوده عن الوجودات فلا يتصور في العلوم ما هو أعلى منه فيكون محيطا بكل ما يمكن علمه والا تصور العقل علما أشمل وهو انما يكون لوجود أكمل وهو محال ما هو لازم لوجود الواجب يفنى بفناه و يبقى ببقائه وعلم الواجب من لوازم وجوده فلا يفتقر الى شئ ما وراء ذاته فهو أزلي أبدي غني عن الآلات وجولات الفكر وأفاعيل النظر فيخالف علوم الممكنات بالضرورة ما يوجد من الممكنات فهو موافق لما انكشف بذلك العلم والا لم يكن علما

من أدلة ثبوت العلم للواجب ما نشاهده في نظام الممكنات من الاحكام والاتقان ووضع كل شئ في موضعه وقرن كل ممكن بما يحتاج اليه في وجوده و بقائه وذلك ظاهر لجلي النظر بما يشاهد في الاعيان كبيرها وصغيرها علويها وسفليها فهذه الروابط بين الكواكب والنسب الثابتة بينها وتقدير حركاتها على قاعدة تكفل لها البقاء على الوضع الذي قدر لها والزام كل كوكب بمدار لو خرج عنه لاختل نظام عالمه او العالم بأسره وغير ذلك مما فصل في علوم الهيئة الفلكية كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره

اعتبر بما تراه في جزئيات النباتات والحيوانات من توفيتها قواها وايتائها ما تحتاج اليه في تقويم وجودها من الآلات والاعضاء ووضع ذلك في مواضعه من أبدانها وايداع غير الحساس منها كالنبات قوة الميل الى تناول ما يناسبه من الغذاء دون ما لا يلائمه فتري بزرة الحنظل تدفن بجوار حبة البطيخ في ارض

واحدة ثم تسقى بماء واحد وتنمى بعناية واحدة ولكن تلك تمتص من المواد ما يغذى المرارة وهذه تتناول ما يغذو حلو المذاق وارشاد الحساس منها الى استعمال ما منح من تلك الادوات والاعضاء وسوق كل قوة من قواه الى ما قدرت له فهو الذى يعلم حالة الجنين وهو نطفة او علقة ويعلم حاجته متى تكامل خلقه وأنشأه نشأة الحى المستقل فى عمله الى الايدى والارجل والاعين والمشام والآذان وبقية المشاعر الباطنة ليستعمل ذلك فيما يقيم وجوده ويقيه من العوادى عليه وحاجته الى المعدة والقلب والكبد والرئة ونحوها من الاعضاء التى لا غنى عنها فى النمو والبقاء الى الاجل المحدود للشخص او للنوع هو الذى يعلم حالة الجروة من الكلاب مثلا وانها متى كبرت تلد أجراء متعددة فيمنحها أطباء متكثرة وغير ذلك مما لا يستطاع احصاؤه وقد فصل الكثير منه فى كتب النباتات وحياة الحيوان وما يسمى التاريخ الطبيعى وفنون منافع الاعضاء والطب وما يتبعه على ان الباحثين فى كل ذلك بعد ما بذلوا من الجهد وما صرفوا من الهمم وما كشفوا من الاسرار لم يزالوا فى أول البحث

هذا الصنيع الذى انما تتفاضل العقول فى فهم أسراره والوقوف على دقائق حكمه ألا يدل على ان مصدره هو العالم بكل شئ الذى اعطى كل شئ خلقه ثم هدى هل يمكن لمجرد الاتفاق المسمى بالصدفة ان يكون ينبوع لهذا النظام وواضعا لتلك القواعد التى يقوم عليها وجود الاكوان عظيمها وحقيرها كلا بل مبدع ذلك كله هو من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء وهو السميع العليم

الارادة

مما يجب لواجب الوجود الارادة وهى صفة تخصص فعل العالم بأحد وجوهه الممكنة بعد ما ثبت ان واهب وجود الممكنات هو الواجب وانه عالم وان ما يوجد من الممكن لا بد ان يكون على وفق علمه ثبت بالضرورة انه مريد لانه انما يفعل

على حسب علمه ثم ان كل موجود فهو على قدر مخصوص وصفة معينة وله وقت ومكان محدودان وهذه وجوه قد خصصت له دون بقية الوجوه الممكنة وتخصيصها كان على وفق العلم بالضرورة ولا معنى للارادة الا هذا

اما ما يعرف من معنى الارادة وهو ما به يصح للفاعل ان ينفذ ما قصده وان يرجع عنه فذلك محال فى جانب الواجب فان هذا المعنى من الهموم الكونية والعزائم القابلة للفسخ وهى من توابع النقص فى العلم فتتغير على حسب تغير الحكم وتردد الفاعل بين البواعث على الفعل والترك

القدرة

ومما يجب له القدرة وهى صفة بها الايجاد والاعدام ولما كان الواجب هو مبدع الكائنات على مقتضى علمه وارادته فلا ريب يكون قادرا بالبداهة لان فعل العالم المريد فيما علم واراد انما يكون بسلطة له على الفعل ولا معنى للقدرة الا هذا السلطان

الاختيار

ثبوت هذه الصفات الثلاث يستلزم بالضرورة ثبوت الاختيار اذ لا معنى له الا اصدار الاثر بالقدرة على مقتضى العلم وعلى حكم الارادة فهو الفاعل المختار ليس من افعاله ولا من تصرفه فى خلقه ما يصدر عنه بالعلية المحضة والاستلزام الوجودى بدون شعور ولا ارادة وليس من مصالح الكون ما يلزمه مراعاته لزوم تكليف بحيث لو لم يراعه لتوجه عليه النقد فيأتيه تنزها عن اللائمة تعالى عن ذلك علوا كبيرا ولكن نظام الكون ومصالحه العظمى انما تقررت له بحكم انه اثر الوجود الواجب الذى هو أكمل الوجودات وأرفعها فالكمال فى الكون انما هو تابع لكمال المكون واتقان الابداع انما هو مظهر لسمو مرتبة المبدع وبهذا الوجود البالغ أعلى غايات النظام تعلق العلم الشامل والارادة المطلقة فصدر ويصدر على هذا النمط الرفيع (أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون) وهذا هو معنى

قولهم ان أفعاله لا تعلل بالاغراض ولكنها تتنزه عن العبث ويستحيل ان تخلو من الحكم وان خفي شيء من حكمتها عن انظارنا

الوحدة

ومما يجب له صفة الوحدة ذاتا ووصفا ووجودا وفعلا اما الوحدة الذاتية فقد اثبتناها فيما تقدم بنفي التركيب في ذاته خارجا وعقلا واما الوحدة في الصفة أي انه لا يساويه في صفاته الثابتة له موجود فلما بينا من ان الصفة تابعة لمرتبة الوجود وليس في الموجودات ما يساوي واجب الوجود في مرتبة الوجود فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات واما الوحدة في الوجود وفي الفعل ونعني بها التفرد بوجوب الوجود وما يتبعه من ايجاد الممكنات فهي ثابتة لانه لو تعدد واجب الوجود لامكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة والالم يتحصل معنى التعدد وكلما اختلفت التعينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة لان الصفة انما تتعين وتنال تحققها الخاص بها بتعين ما ثبتت له بالبداهة فيختلف العلم والارادة باختلاف الذوات الواجبة اذ يكون لكل واحدة منها علم وارادة بيانان علم الاخرى وارادتها ويكون لكل واحدة علم وارادة يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها

هذا التخالف ذاتي لان علم الواجب وارادته لازمان لذاته من ذاته لا لامر الخارج فلا سبيل الى التغير والتبدل فيهما كما سبق وقد قدمنا أن فعل الواجب انما يصدر عنه على حسب علمه وحكم ارادته فيكون فعل كل صادرا على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية فلو تعدد الواجبون لتخالفت افعالهم بتخالف علومهم وارادتهم وهو خلاف يستحيل معه الوفاق وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات له السلطة على الايجاد في عامة الممكنات فكل له التصرف في كل منها على حسب علمه وارادته ولا مرجع لنفاذ احدى القدرتين دون الاخرى فتتضارب

افعالهم حسب التضارب فى علومهم وارادتهم فيفسد نظام الكون بل يستحيل ان يكون له نظام بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات لان كل ممكن لا بد ان يتعلق به الايجاد على حسب العلوم والارادات المختلفة فيلزم ان يكون للشىء الواحد وجودات متعددة وهو محال فلو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا لكن الفساد ممتنع بالبداهة فهو جل شأنه واحد فى ذاته وصفاته لا شريك له فى وجوده ولا فى افعاله

الصفات السمعية التى يجب الاعتقاد بها

ما قدمنا من الصفات التى يجب الاعتقاد بثبوتها لواجب الوجود هى ما ارشد اليه البرهان وجاءت الشريعة الاسلامية وما تقدمها من الشرائع المقدسة لتأييده والدعوة اليه بلسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولسان من سبقه من الانبياء صلوات الله عليهم اجمعين

ومن الصفات ما جاء ذكره على لسان الشرع ولا يحيله العقل اذا حمل على ما يليق بواجب الوجود ولكن لا يهتدى اليه النظر وحده ويجب الاعتقاد بانه جل شأنه متصف بها اتباعا لما قرره الشرع وتصديقا لما أخبر به فمن تلك الصفات صفة الكلام فقد وردان الله كلم بعض انبيائه ونطق القرآن بانه كلام الله فمصدر الكلام المسموع عنه سبحانه لا بد ان يكون شأنا من شؤنه قديما بقدمه اما الكلام المسموع نفسه المعبر عن ذلك الوصف القديم فلا خلاف فى حدوثه ولا فى انه خلق من خلقه وخصص بالاسناد اليه لاختياره له سبحانه فى الدلالة على ما أراد ابلاغه لخلقه ولانه صادر عن محض قدرته ظاهرا وباطنا بحيث لا مدخل لوجود آخر فيه بوجه من الوجوه سوى ان من جاء على لسانه مظهر لصدوره والقول بخلاف ذلك مصادرة للبداهة وتجرؤ على مقام القدم بنسبة التغير والتبدل اليه فان الآيات التى يقرؤها القارىء تحدث وتفنى بالبداهة كلما تليت

والقائل بقدم القرآن المقروء أشنع حالا وأضل اعتقادا من كل ملة جاء القرآن نفسه بتضليلها والدعوة الى مخالفتها وليس في القول بأن الله أوجد القرآن بدون دخل لكسب بشر في وجوده مايمس شرف نسبته بل ذلك غاية مادعا الدين الى اعتقاده فهو السنة وهو ما كان عليه النبي وأصحابه وكل ماخالفه فهو بدعة وضلالة

أما ما نقل الينا من ذلك الخلاف الذي فرق الامة وأحدث فيها الاحداث خصوصا في أوائل القرن الثالث من الهجرة وإباء بعض الائمة ان ينطق بان القرآن مخلوق فقد كان منشؤه مجرد التحرج والمبالغة في التأدب من بعضهم والا فيجل مقام مثل الامام ابن حنبل عن ان يعتقد ان القرآن المقروء قديم وهو يتلوه كل ليلة بلسانه ويكيفه بصوته

ومما ثبت له بالنقل صفة البصر وهي ما به تنكشف المبصرات وصفة السمع وهي ما به تنكشف المسموعات فهو السميع البصير لكن علينا ان نعتقد ان هذا الانكشاف ليس بآلة ولا جارحة ولا حدقة ولا باصرة

كلام في الصفات اجمالا

أبتدئ الكلام فيما أقصد بذكر حديث ان لم يصح فكتاب الله بجملته وتفصيله يؤيد معناه وهو قوله صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا

اذا قدرنا عقل البشر قدره وجدنا غاية ماينتهي اليه كماله انما هو الوصول الى معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الادراك الانساني حسا كان او وجدانا او تعقلا ثم التوصل بذلك الى معرفة مناشئها وتحصيل كليات لانواعها والاحاطة ببعض القواعد لعروض مايعرض لها اما الوصول الى كنه حقيقة ما فما لا تبلغه قوته لان ادراكاته المركبات انما هو باكتناه ما تركبت منه وذلك ينتهي

الى البسيط الصرف وهو لا سبيل الى اكتناهه بالضرورة وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره خذ اظهر الاشياء وأجلاها كالضوء قر الناظرون فيه له احكاما كثيرة فصلوها في علم خاص به ولكن لم يستطع ناظر ان يفهم ماهو ولا ان يكتنه معنى الاضاءة نفسه وانما يعرف من ذلك ما يعرفه كل بصير له عينان وعلى هذا القياس

ثم ان الله لم يجعل للانسان حاجة تدعوه الى اكتناه شيء من الكائنات وانما حاجته الى معرفة العوارض والخواص ولذة عقله ان كان سليما انما هي تحقيق نسبة تلك الخواص الى ما اختصت به وادراك القواعد التي قامت عليها تلك النسب فالاشتغال بالاكتناه اضاعة للوقت وصرف للقوة الى غير ما سيقت اليه

اشتغل الانسان بتحصيل العلم بأقرب الاشياء اليه وهي نفسه أراد ان يعرف بعض عوارضها وهل هي عرض او جوهر هل هي قبل الجسم او بعده هل هي فيه او مجردة عنه كل هذه صفات لم يصل العقل الى اثبات شيء منها يمكن الاتفاق عليه وانما بلغ جهده انه عرف انه موجود حي له شعور واردة وكل ما أحاط به بعد ذلك من الحقائق الثابتة فهو راجع الى تلك العوارض التي وصل اليها ببديهته اما كنهه شيء من ذلك بل وكيفية اتصافه ببعض صفاته فهو مجهول عنده ولا يجد سبيلا للعلم به

هذا حال العقل الانساني مع ما يساويه في الوجود او ينحط عنه بل وكذلك شأنه فيما يظن من الافعال انه صادر عنه كالفكر وارتباطه بالحركة والنطق فما يكون من أمره بالنسبة الى ذلك الوجود الاعلى ما ذا يكون اذ هاشه بل انقطاعه اذا وجه نظره الى ما لا يتناهى من الوجود الازلي الابدي

النظر في الخلق يهدي بالضرورة الى المنافع الدنيوية ويفضي بالنفس طريقها الى معرفة من هذه آثاره وعليها تجلت أنواره والى اتصافه بما لولا ما صدرت عنه هذه الآثار على ما هي عليه من النظام وتخالف الانظار في الكون انما هو

من تصارع الحق والباطل ولابد ان يظفر الحق و يعلو على الباطل بتعاون الافكار او صولة القوى منها على الضعيف

أما الفكر فى ذات الخالق فهو طلب للاكتناه من جهة وهو ممتنع على العقل البشرى لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين والاستحالة التركب فى ذاته وتطاول الى ما لا تبلغه القوة البشرية من جهة أخرى فهو عبث ومهلكة عبث لانه سعى الى ما لا يدرك ومهلكة لانه يؤدى الى الخبط فى الاعتقاد لانه تحديد لما لا يجوز تحديده وحصر لما لا يصح حصره

لا ريب ان هذا الحديث وما أتينا عليه من البيان كما يأتى فى الذات من حيث هى يأتى فيها مع صفاتها فالنهى واستحالة الوصول الى الاكتناه شاملان لها فيكفينا من العلم بها ان نعلم انه متصف بها اما وراء ذلك فهو مما يستأثر هو بعلمه ولا يمكن لعقولنا ان تصل اليه ولهذا لم يأت الكتاب العزيز وما سبقه من الكتب الا بتوجيه النظر الى المصنوع لينفذ منه الى معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية اما كيفية الاتصاف فليس من شأننا ان نبحث فيه

فالذى يوجبه علينا الايمان هو ان نعلم انه موجود لا يشبه الكائنات أزلى ابدى حى عالم مريد قادر متفرد فى وجوب وجوده وفى كمال صفاته وفى صنع خلقه وانه متكلم سميع بصير وما يتبع ذلك من الصفات التى جاء الشرع باطلاق اسمائها عليه اما كون الصفات زائدة على الذات وكون الكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معانى الكتب السماوية وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات ونحو ذلك من الشؤن التى اختلف عليها النظار وتفرقت فيها المذاهب فمما لا يجوز الخوض فيه اذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل اليه والاستدلال على شئ منه بالالفاظ الواردة ضعف فى العقل وتقرير بالشرع لان استعمال اللغة لا ينحصر فى الحقيقة ولئن انحصر فيها فوضع اللغة لا تراعى فيه الوجودات بكنهها الحقيقى وانما تلك مذاهب

فلسفة ان لم يضل فيها امثالهم فلم يهتد فيها فريق الى مقنع فما علينا الا الوقوف عند ما تبلغه عقولنا وان نسأل الله ان يغفر لمن آمن به وبما جاء به رسله ممن تقدمنا

افعال الله جل شأنه

افعال الله صادرة عن علمه وارادته كما سبق تقديره وكل ما صدر عن علم وارادة فهو عن الاختيار ولا شيء مما يصدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته فلا شيء من افعاله بواجب الصدور عنه لذاته فجميع صفات الافعال من خلق ورزق واعطاء ومنع وتعذيب وتنعيم مما يثبت له تعالى بالامكان الخاص فلا يطوفن بعقل عاقل بعد تسليم انه فاعل عن علم وارادة ان يتوهم ان شيأ من افعاله واجب عنه لذاته كما هو الشأن في لوازم الماهيات أو في اتصاف الواجب بصفاته مثلا فان ذلك هو التناقض البديهي الاستحالة كما سبق الاشارة اليه

بقيت علينا جولة نظر في تلك المقالات الحمقى التي اختبط فيها القوم اختباط اخوة تفرقت بهم الطرق في السير الى مقصد واحد حتى اذا التقوا في غسق الليل صاح كل فريق بالآخر صيحة المستخبر فظن كل ان الآخر عدو يريد مقارعته على ما بيده فاستحر بينهم القتال ولازالوا يتجالدون حتى تساقط جلهم دون المطلب ولما اسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع الرشد الى من بقي وهم الناجون ولو تعارفوا من قبل لتعاونوا جميعا على بلوغ ما املوا ولواتهم الغاية اخوانا بنور الحق مهتدين نريد تلك المقالات المضطربة في انه يجب على الله رعاية المصلحة في افعاله وتحقيق وعيده فيمن تعدى حدوده من عبيده وما يتلو ذلك من وقوع افعاله تحت العلل والاغراض فقد بالغ قوم في الايجاب حتى ظن الناظر في مزاعمهم انهم عدوه واحدا من المكلفين يفرض عليه ان يجهد للقيام بما عليه من الحقوق وتأدية ما لزمه من الواجبات تعالى عن ذلك علوا كبيرا وغلا آخرون في نفي التعليل عن افعاله حتى خيل للمنعمين في مقالاتهم انهم لا يرضونه الا قلبا يبرم اليوم ما نقضه بالامس

و يفعل غدا ما اخبر بنقيضه اليوم او غافلا لا يشعر بما يستتبعه عمله سبحان ربك رب العزة عما يصفون وهو احكم الحاكمين واصدق القائلين جبروت الله وطهارة اينه اعلى وارفع من هذا كله

د تفق الجميع على ان افعاله تعالى لا تخلو من حكمة وصرح الغلاة والمقصرون جميعا بانه تعالى منزه عن العبث فى افعاله والكذب فى اقواله ثم بعد هذا أخذوا يتنابذون بالالفاظ و يتمارون فى الاوضاع ولا يدرى الى اى غاية يقصدون فلنأخذ ما اتفقوا عليه ولنرد الى حقيقة واحدة ما اختلفوا فيه

حكمة كل عمل ما يترتب عليه مما يحفظ نظاما أو يدفع فسادا خاصا كان أو عاما لو كشف للعقل من أى وجه لعقله وحكم بان العمل لم يكن عبثا ولعبا ومن يزعم للحكمة معنى لا يرجع الى هذا حاكمناه الى أوضاع اللغة وبداهة العقل لا يسمى ما يترتب على العمل حكمة ولا يتمثل عند العقل بمثالها الا اذا كان ما يتبع العمل مرادا للفاعله بالفعل والا لعد النائم حكيما فيما لو صدرت عنه حركة فى نومه قتلت عقربا كاد يلسع طفلا أو دفعت صبيا عن حفرة كاد يسقط فيها بل لوسم بالحكمة كثير من العجماوات اذا استتبعت حركاتها بعض المنافع الخاصة أو العامة والبداهة تأباه

من القواعد الصحيحة المسلمة عند جميع العقلاء ﴿ أن افعال العاقل تصان عن العبث ﴾ ولا يريدون من العاقل الا العالم بما يصدر عنه بارادته و يريدون من صونها عن العبث انها لا تصدر الا لامر يترتب عليها يكون غاية لها وان كان هذا فى العاقل الحادث فما ظنك بمصدر كل عقل ومنتهى الكمال فى العلم والحكم هذه كلها مسلمات لا ينازع فيها احد

صنع الله الذى اتقن كل شئ واحسن خلقه مشحون بضروب الحكم ففيه ما قامت به السموات والارض وما بينهما وحفظ به نظام الكون بامره وما صانه عن الفساد

الذى يفضي به الى العدم وفيه ما استقامت به مصلحة كل موجود على حدته خصوصا ما هو من الموجودات الحية كالنبات والحيوان ولولا هذه البدائع من الحكم ما تيسر لنا الاستدلال على علمه

فهذه الحكم التى نعرفها الآن بوضع كل شئ فى موضعه وإيتاء كل محتاج ماله اليه الحاجة اما ان تكون معلومة له سر ادة مع الفعل ام لا لا يمكن القول بالثانى والا لكان قولا بقصور العلم ان لم تكن معلومة أو بالغفلة ان لم تكن سر ادة وقد سبق تحقيق ان علمه وسع كل شئ واستحالة غيبة أثر من آثاره عن ارادته فهو يريد الفعل و يريد ما يترتب عليه من الحكمة ولا معنى لهذا الا ارادته للحكمة من حيث هى تابعة للفعل ومن المحال أن تكون الحكمة غير مرادة بالفعل مع العلم بارتباطها به فيجب الاعتقاد بان افعاله يستحيل أن تكون خالية من الحكمة وبان الحكمة يستحيل أن تكون غير مرادة اذ لو صح توهم أن ما يترتب على الفعل غير مراد لم يعد ذلك من الحكمة كما سبق

فوجوب الحكمة فى افعاله تابع لوجوب الكمال فى علمه وارادته وهو مما لا نزاع فيه بين جميع المتخالفين وهكذا يقال فى وجوب تحقق ما وعد وأوعد به فانه تابع لكمال علمه وارادته وصدقه وهو اصدق القائلين وما جاء فى الكتاب أو السنة مما قد يوهم خلاف ذلك يجب ارجاعه الى بقية الآيات وسائر الآثار حتى ينطبق الجميع على ما هدت اليه البديهيات السابق ايرادها وعلى ما يليق بكمال الله وبالغ حكمته وجليل عظمته والاصل الذى يرجع اليه كل وارد فى هذا الباب قوله تعالى وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين لو اردنا ان نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون

وقوله لاتخذناه من لدنا أي لصدر عن ذاتنا المتفردة بالكمال المطلق الذى

لا يشوبه نقص وهو محال وإن في قوله ان كنا فاعلين نافية وهو نتيجة القياس السابق

بقي ان الناظرين في هذه الحقائق ينقسمون الى قسمين فمنهم من يطلب علمها لانه شهوة العقل وفيه لذته فهذا القسم يسمي المعاني باسمائها ولا يبالي جوز الشرع اطلاقها في جانب الله أم لم يجوز فيسمي الحكمة غاية وغرضا وعلة غائية ورعاية للمصلحة وليس من رأيه ان يجعل لقلمه عنانا يرده عن اطلاقه اسم متى صح عنده معناه وقد يعبر بالواجب عليه بدل الواجب له غير مبال بما يوهمه اللفظ

ومنهم من يطلب علمها مع مراعاة ان ذلك دين يتعبد به واعتقاد بشؤن لاله عظيم يعبد بالتحميد والتعظيم ويجب الاحتياط في تنزيهه حتى بعفة اللسان عن النطق بما يوهم نقصا في جانبه فيتبرأ من تلك الالفاظ مفردها ومركبها فان الوجوب عليه يوهم التكليف والالزام وبعبارة اخرى يوهم القهر والتأثر بالاغيار ورعاية المصلحة توهم إعمال النظر وإجالة الفكر وهما من لوازم النقص في العلم والغاية والعلة الغائية والغرض توهم حركة في نفس الفاعل من قبل البدء في العمل الى نهايته وفيها ما في سوابقها ولكن الله اكبر هل يصح أن تكون سعة المجال أو التعفف في المقال سببا في التفرقة بين المؤمنين وتماريهم في الجدال حتى ينتهي بهم التفرق الى ما صاروا اليه من سوء الحال

﴿ افعال العباد ﴾

كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه انه موجود ولا يحتاج في ذلك الى دليل يهديه ولا معلم يرشده كذلك يشهد انه مدرك لاعماله الاختيارية يزن نتائجها بعقله ويقدرها باراداته ثم يصدرها بقدرة ما فيه ويعدانكار شيء من ذلك مساويا لانكار وجوده في مجافاته لبداهة العقل

كما يشهد بذلك في نفسه يشهد أيضا في بني نوعه كافة متى كانوا مثله في سلامة

العقل والحواس ومع ذلك فقد يريد إرضاء خليل فينضبه وقد يطلب كسب رزق فيفوته وربما سعى الى منجاة فسقط فى مهلكة فيعود بالملامة على نفسه ان كان لم يحكم النظر فى تقدير فعله ويتخذ من خيبته أول مرة مرشدا له فى الاخرى فيعاود العمل من طريق أقوم وبوسائل أحكم ويتقد غيظه على من حال بينه وبين ما يشتهى ان كان سبب الاخفاق فى المسعى منازعة منافس له فى مطلبه لوجدانه من نفسه انه الفاعل فى حرمانه فينبرى لمناضلته وتارة يتجه الى امر أسمى من ذلك ان لم يكن لتقصيره او لمنافسة غيره دخل فيما لقى من مصير عمله كان هب ريح فاغرق بضاعته او نزل صاعق فاحرق ماشيته او علق آفة بمين فمات او بذى منصب فعزل يتجه من ذلك الى ان فى الكون قوة اسمى من ان تحيط بها قدرته وان وراء تدبيره سلطانا لا تصل اليه صلاحيته فان كان قد هداه البرهان وتقويم الدليل الى ان حوادث الكون بأسره مستندة الى واجب وجود واحد يصرفه على مقتضى علمه وارادته خشع وخضع ورد الامر اليه فيما لقى ولكن مع ذلك لا ينسى نصيبه فيما بقى فالمؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان ان قدرة مكون الكائنات اسمى من قوى الممكنات يشهد بالبداهة انه فى اعماله الاختيارية عقلية كانت او جسمانية قائم بحصر يف ماوهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لاجله وقد عرف القوم شكر الله على نعمه فقالوا هو صرف العبد جميع ما انعم الله به عليه الى ما خلق لاجله على هذا قامت الشرائع وبه استقامت التكاليف ومن انكر شيأ منه فقد انكر مكان الايمان من نفسه وهو عقله الذى شرفه الله بالخطاب فى اوامره ونواهيه

اما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من احاطة علم الله وارادته وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار فهو من طلب سر القدر الذى نهينا عن الخوض فيه واشتغال بما لا تكاد تصل اليه وقد خاض فيه الفائزون من كل ملة خصوصا من المسيحيين والمسلمين ثم لم يزالوا بعد طول

الجدال وقوقا حيث ابتدؤا وغاية مافعلوا ان فرقوا وشتتوا فمنهم القائل بسلطة العبد على جميع افعاله واستقلاله المطلق وهو غرور ظاهر ومنهم من قال بالجبر وصرح به ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه وهو هدم للشريعة ومحو للتكاليف وابطال لحكم العقل البديهي وهو عماد الايمان

ودعوى ان الاعتقاد بكسب العبد لافعاله يؤدي الى الاشراك بالله وهو الظلم العظيم دعوى من لم يلتفت الى معنى الاشراك على ماجاء به الكتاب والسنة فالاشراك اعتقاد أن لغير الله أثرا فوق ماوهبه الله من الاسباب الظاهرة وان لشيء من الاشياء سلطانا على ماخرج عن قدرة المخلوقين وهو اعتقاد من يعظم سوى الله مستعينا به فيما لا يقدر العبد عليه كالاستنصار في الحرب بغير قوة الجيوش والاستشفاء من الامراض بغير الادوية التي هدانا الله اليها والاستعانة على السعادة الاخروية او الدنيوية بغير الطرق والسنن التي شرعها الله لنا هذا هو الشرك الذي كان عليه الوثنيون ومن ماثلهم فجاءت الشريعة الاسلامية بمحوه ورد الامر فيما فوق القدرة البشرية والاسباب الكونية الى الله وحده وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الاعمال البشرية الاول ان العبد يكسب بارادته وقدرته ماهو وسيلة لسعادته والثاني أن قدرة الله هي مرجع لجميع الكائنات وأن من آثارها ما يحول بين العبد وبين انفاذ ما يريده وان لا شيء سوى الله يمكن له ان يعد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه جاءت الشريعة لتقرير ذلك وتحريم ان يستعين العبد بأحد غير خالقه في توفيقه الى إتمام عمله بعد احكام البصيرة فيه وتكليفه بان يرفع همته الى استمداد العون منه وحده بعد ان يكون قد افرغ ماعنده من الجهد في تصحيح الفكر وإجادة العمل ولا يسمح العقل ولا الدين لاحد ان يذهب الى غير ذلك وهذا الذي قررناه قد اهتدى اليه سلف الامة فقاموا من الاعمال بما عجبت له الامم وعول عليه من متأخري اهل النظر امام الحرمين الجويني رحمه الله

وان انكر عليه بعض من لم يفهمه

اكبر القول بان الايمان بوحدانية الله لا يقتضى من المكلف الا اعتقاد ان الله صرفه فى قواه فهو كاسب لايمانه ولما كلفه الله به من بقية الاعمال واعتقاد قدرة الله فوق قدرته ولما وحدها السلطان الاعلى فى اتمام مراد العبد ازالة الموانع أو تهيئة الاسباب المتممة مما لا يعلمه ولا يدخل تحت ارادته ما التطلع الى ما هو أغمض من ذلك فليس من مقتضى الايمان كما بينا وانما هو من شره العقول فى طلب رفع الاستار عن الاسرار ولا انكر أن قوما قد وصلوا بقوة العلم والمثابرة على مجاهدة المدارك الى ما اطمأنت به نفوسهم وتقشعت به حيرتهم ولكن قليل ما هم على ان ذلك نور يقذفه الله فى قلب من شاء ويخص به اهل الولاية والصفاء وكثيرا ما ضل قوم واضلوا وكان لمقالاتهم أسوأ الاثر فيما عليه حال الامة اليوم لو شئت لقربت البعيد فقلت ان من بالغ الحكم فى الكون أن تتنوع الانواع على ما هى عليه فى العيان ولا يكون النوع ممتازا عن غيره حتى تلزمه خواصه وكذا الحال فى تميز الاشخاص فواهب الوجود يهب الانواع والاشخاص وجودها على ما هى عليه ثم كل وجود متى حصل كانت له توابعه ومن تلك الانواع الانسان ومن مميزاته حتى يكون غير سائر الحيوانات أن يكون مفكرا مختارا فى عمله على مقتضى فكره فوجوده الموهوب مستتبع لمميزاته هذه ولو سلب شيئا منها لكان اما ملكا أو حيوانا آخر والفرض انه الانسان فهبة الوجود له لا شئ فيها من القهر على العمل ثم علم الواجب محيط بما يقع من الانسان بارادته وبان عمل كذا يصدر فى وقت كذا وهو خير يثاب عليه وان عملا آخر شر يعاقب عليه عقاب الشر والاعمال فى جميع الاحوال حاصلة عن الكسب والاختيار فلا شئ فى العلم يسالب للتخيير فى الكسب وكون ما فى العلم يقع لا محالة انما جاء من حيث

هو الواقع والواقع لا يتبدل

ولنا فى علومنا الكونية اقرب الامثال شخص من اهل العناد يعلم علم اليقين أن عصيانه لامره باختياره يحل به عقوبته لا محالة لكنه مع ذلك يعمل العمل و يستقبل العقوبة وليس لشئ من علمه وانطباقه على الواقع أدنى اثر فى اختياره لا بالمنع ولا بالالزام فانكشاف الواقع للعالم لا يصح فى نظر العقل ملزما ولا مانعا وانما يربك الوهم تغيير العبارات وتشعب الالفاظ ولو شئت لزدت فى بيان ذلك ورجوت ان لا يبعد عن عقل الف النظر الصحيح ولم تفسد فطرته بالمماحكات اللفظية لكن يمنعنى عن الاطالة فيه عدم الحاجة اليه فى صحة الايمان وتقاصر عقول العامة عن ادراك الامر فى ذاته مهما بالغ المعبر فى الايضاح عنه والتباث قلوب الجمهور من الخاصة بمرض التقليد فهم يعتقدون الامر ثم يطلبون الدليل عليه ولا يريدونه الا موافقا لما يعتقدون فان جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا نبذوه ولجوا فى مقاومته وان ادى ذلك الى جحد العقل برمته وأكثرهم يعتقد فيستدل وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد فان صاح بهم صائح من اعماق سرائرهم ويل للخابط ذلك قلب لسنة الله فى خلقه وتحريف لهديه فى شرعه عرتهم هزة من الجزع ثم عادوا الى السكون محتجين بان هذا هو المألوف وما اقتنا الا على معروف ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

حسن الافعال وقبحها

الافعال الانسانية الاختيارية لا تخرج عن ان تكون من الاكوان الواقعة تحت مدار كنا وما تنفعل به نفوسنا عند الاحساس بها أو استحضار صورها يشابه كل المشابهة ما تنفعل به عند وقوع بعض الكائنات تحت حواسنا أو حضورها فى تخيلاتنا وذلك بديهى لا يحتاج الى دليل

نجد فى انفسنا بالضرورة تمييزا بين الجميل من الاشياء والقبيح منها فان اختلفت

مشارب الرجال فى فهم جمال النساء أو مشارب النساء فى معنى جمال الرجال فلم يختلف احد فى جمال الوان الازهار وتنضيد أو راق النباتات والاشجار خصوصا اذا كانت اوضاع الزهر على اشكال تمثل الائتلاف والتناسب بين تلك الالوان بعضها مع بعض ولا فى قبح الصورة الممثل بها بتهشيم بعض اجزائها وانقطاع البعض الآخر على غير نظام وانفعال انفسنا من الجميل بهجة او عجاب ومن القبيح اشمئزاز أو جزع وكما يقع هذا التمييز فى المبصرات يقع فى غيرها من المسموعات والملموسات والمذوقات والمشمومات كما هو معروف لكل حساس من بنى آدم باحدى تلك الحواس

ليس هذا موضع تحديد ماهو الجمال وماهو القبح فى الاشياء ولكن لا يخالفنا احد فى ان من خواص الانسان بل و بعض الحيوان التمييز بينهما وعلى هذا التمييز قامت الصناعات على اختلاف انواعها وبه ارتقى العمران فى اطواره الى الحد الذى نراه عليه الآن وان اختلفت الاذواق فى الاشياء جمال وقبح

هذا فى المحسوسات واضح كما سبق ولعله ولا ينزل عن تلك الدرجة فى الوضوح مايلم به العقل من الموجودات المعقولة وان اختلف اعتبار الجمال فيها فالكمال فى المعقولات كالوجود الواجب والارواح اللطيفة وصفات النفوس البشرية له جمال تشعر به انفس عارفيه وتتبهر له بصائر لاحظيه وللنقص قبح لا تنكره المدارك العالية وان اختلف اثر الشعور ببعض اطواره فى الوجدان عن اثر الاحساس بالقبيح فى المحسوسات وهل فى الناس من ينكر قبح النقص فى العقل والسقوط فى الهمة وضعف العزيمة ويكفى ان ارباب هذه النقائص المعنوية يجاهدون فى اخفائها و يفخرون احيانا بانهم متصفون باضدادها

وقد يجمل القبيح بجمال اثره ويقبح الجميل بقبح مايقترن به فالمر قبيح

مستبشع والملك الدميم المشوه الخلقة ينبو عنه النظر لكن اثر المرض معالجة المرض وعدل الدميم فى رعيته او احسانه اليك فى خاصة نفسك يغير من حالتك النفسية عند حضور صورته فان جمال الاثر يلقى على صاحبه اشعة من بهائه فلا يشعر الوجدان منه الا بالجميل ومثل ذلك يقال فى قبح الحلو اذا اضر واشمئزاز النفس من الجميل اذا ظلم واضر

هل يمكن لما قل ان لا يقول فى الافعال الاختيارية كما قال فى الموجودات الكونية مع انها نوع منها وتقع تحت حواسنا ومدار كتنا العقلية اما بنفسها واما باثرها وتنفعل نفوسنا بما يلم بها منها كما تنفعل بما يرد عليها من صور الكائنات كلا بل هى قسم من الموجودات حكمها فى ذلك حكم سائرها بالبداهة

فمن الافعال الاختيارية ما هو معجب فى نفسه تجد النفس منه ما تجد من جمال الخلق كالحركات العسكرية المنتظمة وتقلب المهرة من اللاعبين فى الالاعيب المعروفة اليوم ﴿بالجناستيك﴾ وكايقاع النغمات على القوانين الموسيقية من العارف بها ومنها ما هو قبيح فى نفسه يحس منه ما يحس من رؤية الخلق المشوه كتخبط ضفادع النفوس عند الجزع وكولولة النائحات ونفع المذعورين

ومنها ما هو قبيح لما يعقبه من الالم وما هو حسن لما يجلب من اللذة او دفع الالم فالاول كالضرب والجرح وكل ما يؤلم من افعال الانسان والثانى كالاكل على جوع والشرب على عطش وكل ما يحصل لذة او يدفع ألما مما لا يحصى عده وفى هذا القسم يكون الحسن بمعنى ما يلذ والقبيح بمعنى المؤلم

وقلما يختلف تمييز الانسان للحسن والقبيح من الافعال بالمعنيين السابقين عن تمييز الحيوانات المرتقية فى سلسلة الوجود اللهم الا فى قوة الوجدان وتحديد مرتبة الجمال والقبح

ومن الافعال الاختيارية ما يحسن باعتبار ما يجلب من النفع وما يقبح بما يجر اليه

من الضرر ويختص الانسان بالتمييز بين الحسن والقبيح بهذا المعنى اذا أخذ من اكل وجماعه وقلما يشاركه فيه حيوان آخر اللهم الا من احط جهاته وهو خاصة العقل وسر الحكمة الالهية فى هبة الفكر

فمن اللذيذ ما يقبح لشؤم عاقبته كالافراط فى تناول الطعام والشراب والانقطاع الى سماع الاغانى والجرى فى اعقاب الشهوات فان ذلك مفسدة للصحة مضيعة للعقل متلفة للمال مدعاة للعجز والذل وانما قبح اللذيذ فى هذا الموضع لقصر مدته وطول مدة ما يجر اليه عادة من الآلام التى قد لا تنتهى الا بالموت على اسوإ حالاته ولضعف النسبة بين متاع اللذة ومقاساة شدائد الالم ومن المؤلم ما يحسن كتجشم مشاق التعب فى الاعمال لكسب الرزق وتأمين النفس على حاجاتها فى اوقات الضعف ومجاهدة الشهوات ومقاساة الحرمان من بعض اللذات حينا من الزمن ليتوفر للقوى البدنية والعقلية حظها من التمتع بما قدر لها من اللذائذ على وجه ثابت لا يخالطه اضطراب أو على نمط يخفف من رزايا الحياة ان عدت الحياة مثارا لها

ومن المؤلم الذى عده العقل البشرى حسنا مقارعة الانسان عدوه سواء كان من نوعه أو من غيره للمدافعة عن نفسه أو عن انصاره ومنهم بنو أبيه أو قبيلته او شعبه أو امته حسب ارتقائه فى الاحساس ومخاطرته حتى بحياته فى سبيل ذلك كانه يرى فى بذل هذه الحياة امنا على حياته اخرى تشعر بها نفسه وان لم يحددها عقله ومنه معاناة التعب فى كشف ما عمى عن علمه من حقائق الكون كأنه لا يرى المشقة فى ذلك شيأ بالقياس الى ما يحصل من لذة الاطمئنان على الحق بقدر ماله من الاستطاعة

وعد من اللذيذ المستقبح مد اليد الى ما كسبه الغير بسعيه واستشفاء ألم الحقد باتلاف نفس المحقود عليه أو ماله لما فى ذلك من جلب المخافة العامة حتى

على ذات المتعدى و يمكنك عن نفسك استحضار ما يتبع الوفاء بالعهود والعقود والغدر فيها

كل هذا عرفه العقل البشرى وفرق فيه بين الضار والنافع وسمى الاول فعل الشر والثاني عمل الخير وهذا التفريق هو منبت التمييز بين الفضيلة والرذيلة وقد حددهما النظر الفكرى على تفاوت فى الاجمال والتفصيل للتفاوت فى درجات عقول الناظرين وناط بهما سعادة الانسان وشقاءه فى هذه الحياة كما ربط بهما نظام العمران البشرى وفساده وعزة الامم وذلتها وضعفها وقوتها وان كان المحدودون لذلك والآخذون فيه بحظ من الصواب هم العدد القليل من عقلاء البشر

كل هذا من الاوليات العقلية لم يختلف فيه ملى ولا فيلسوف فالاعمال الاختيارية حسن وقبح فى نفسها أو باعتبار اثرها فى الخاصة أو فى العامة والحس أو العقل قادر على تمييز ما حسن منها وما قبح بالمعانى السابقة بدون توقف على سمع والشاهد على ذلك ما نراه فى بعض اصناف الحيوان وما نشهده فى افاعيل الصبيان قبل تعقل ما معنى الشرع وما وصل الينا من تاريخ الانسان وما عرف عنه فى جاهليته

ومما يحسن ذكره هنا ما شاهده بعض الناظرين فى احوال النمل قال كانت جماعة من النمل تشتغل فى بيت لها فجاءت نملة كانها القائمة بمراقبة العمل فرأت المشتغلات قد وضعت السقف على اقل من الارتفاع المناسب فأمرت بهدمه فهدم ورفع البنيان الى الحد الموافق ووضع السقف على ارفع مما كان وذلك من انقاض السقف القديم وهذا هو التمييز بين الضار والنافع فمن زعم ان لا حسن ولا قبح فى الاعمال على الاطلاق فقد سلب نفسه العقل بل عدها اشد حمقا من النمل

سبق لنا ان واجب الوجود وصفاته الكمالية تعرف بالعقل فاذا وصل مستدل ببرهانه الى اثبات الواجب وصفاته الغير السمعية ولم تبلغه بذلك رسالة كما حصل

لبعض اقوام من البشر ثم انتقل من النظر فى ذلك وفى اطوار نفسه الى ان مبدأ العقل في الانسان يبقى بعد موته كما وقع لقوم آخرين ثم انتقل من هذا مخطئا أو مصيبا الى ان بقاء النفس البشرية بعد الموت يستدعى سعادة لها فيه أو شقاء ثم قال ان سعادتها انما تكون بمعرفة الله وبالفضائل وانها انما تسقط فى الشقاء بالجهل بالله وبارتكاب الرذائل وبنى على ذلك ان من الاعمال ماهو نافع للنفس بعد الموت بتحصيل السعادة ومنها ماهو ضار لها بعده بايقاعها فى الشقاء فاى مانع عقلى أو شرعى يحظر عليه ان يقول بعد ذلك بحكم عقله ان معرفة الله واجبة وان جميع الفضائل وما يتبعها من الاعمال مفروضة وان الرذائل ومايكون عنها محظورة وان يضع لذلك ما يشاء من القوانين ليدعو بقية البشر الى الاعتقاد بمثل ما يعتقد والى ان يأخذ من الاعمال بمثل ما أخذ به حيث لم يوجد شرع يعارضه

اما ان يكون ذلك حالا لعامة الناس يعلمون بعقولهم ان معرفة الله واجبة وان الفضائل مناط السعادة فى الحياة الاخرى والرذائل مدار الشقاء فيها فما لا يستطيع عاقل ان يقول به والمشهود من حال الامم كافة يضلل القائل به فى رأيه لو كانت حاجات الانسان ومخاوفه محدودة كما هى حاجات فيل أو أسد مثلا وكان ماوهب له من الفكر واقفا عند حد ما اليه الحاجة لاهتدى الى المنع واتقاء المضار على وجه لا يختلف فيه افراده ولسعدت حياته وتخلص كل من شر الآخر ونجا بقية الحيوانات من غائلة الجميع

لكن قضى عليه حكم نوعه بان لا يكون لحاجته حد ولا تختص معيشته بجوم من الاجواء ولا بوضع من الاوضاع وان يوهب من القوى المدركة ما يكفيه استعماله في سد عوزه وتوفير لذاته فى أى اقليم وعلى اى حال وان يختلف ظهور هذه المدارك فى اطوارها وآثارها باختلاف اصنافه وشعوبه واشخاصه اختلافا لا تنتهى درجاته

ولولا هذا لما اختلف عن بقية الحيوانات الا باستقامة القامة وعرض الاظفار
وهب الله الانسان أو سلط عليه ثلاث قوى لم يساوه فيها حيوان الذاكرة والمخيلة
والمفكرة فالذاكرة تثير من صور الماضي ما ستره الاشتغال بالحاضر فتستحضر من
صور المرغوبات والمكروهات ما تنبه اليه الاشباه أو الاضداد الحاضرة فقد يذكر
الشيء بشبهه وقد يذكره بضده كما هو بديهي والخيال يجسم من المذكور وما يحيط به
من الاحوال حتى يصير كأنه شاهد ثم ينشيء له مثال لذة او ألم في المستقبل يحاكي
ما ذهب به الماضي ويهمز للنفس في طلبه أو الهرب منه فتلجأ الى الفكر في تدبير
الوسيلة اليه

على هذه القوى الثلاث مستوى سعادة الانسان ومنها ينبوع بلائه

فمن الناس معتدل الذكر هادىء الخيال صحيح الفكر ينظر مثلا في حال مسرف انفق
ماله في غير نافع وضاقت يده مما يقيم معيشته فيذكر الحاجة مضت ثم يتخيل
المال ومنافعه وما تتمتع به النفس من اللذة به سواء في سد حاجاته أو في دفع الالم
الذي يحدثه مشهد الفاقة في غيره باعطاء المضطر ما يذهب بضرورته ثم يتخيل
ذلك المال آتيا من وجوهه التي لا يتعلق بها حق من حقوق غيره وعند ذلك يوجه
فكره لطالب الوسيلة اليه من تلك الوجوه بالعمل القويم في استخدام ما وهبه الله
من القوى في نفسه وما سخره له من قوى الكون المحيط به

ومن الناس منحرف عن سنن الاعتدال يرى مالا مثلا في يد غيره فيتذكر لذة ماضية
اصابها بمثل هذا المال ويعظم له الخيال لذة مثلها في المستقبل ولا يزال يعظم في
تلك اللذة والتمتع بها حتى يقع ظل الخيال على طريق الفكر فيستر عنه ما طاب من
وجوه الكسب وانما يعمد الى استعمال قوته أو حيلته في سلب المال من يد مالكه
لينفقه فيما تخيل من المنفعة فيكون قد عطل بذلك قواه الموهوبة له وأخل بالامن
الذي افاضه الله بين عباده وسن سنة الاعتداء فلا يسهل عليه ولا على غيره الوصول الى

الراحة من أعمال المقترفين لمثل عمله وخفيف من النظر فى أعمال البشر يحليها جميعها على نحو ما بينا فى المثالين فلقوة الذاكرة وضعفها وحدة الخيال واعتداله واعوجاج الفكر واستقامته أعظم أثر فى التمييز بين النافع والضار فى أشخاص الاعمال واللامزجة والاجواء وما يختف بالشخص من أهل وعشيرة ومعاشرين مدخل عظيم فى التخيل والفكر بل وفى الذكر

فالناس متفقون على ان من الاعمال ما هو نافع ومنها ما هو ضار وبعبارة أخرى منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح ومن عقلائهم وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل منهم من يمكنه إصابة وجه الحق فى معرفة ذلك ومتفقون كذلك على ان الحسن ما كان ادوم فائدة وان كان مؤلما فى الحال وان القبيح ما جرى الى فساد فى النظام الخاص بالشخص او الشامل له ولمن يتصل به وان عظمت لذته الحاضرة ولكنهم يختلفون فى النظر الى كل عمل بعينه اختلافهم فى أمزجتهم وسحنهم ومناشئهم وجميع ما يكتنف بهم فلذلك ضربوا الى الشر فى كل وجه وكل يظن انه انما يطلب نافعا ويتقى ضارا فالعقل البشرى وحده ليس فى استطاعته ان يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته فى هذه الحياة اللهم الا فى قليل ممن لم يعرفهم الزمن فان كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم اشار اليهم الدهر باصابع الاجيال وقد سبقت الاشارة اليهم فيما مر

وليست عقول الناس سواء فى معرفة الله تعالى ولا فى معرفة حياة بعد هذه الحياة فهم وان اتفقوا فى الخضوع لقوة اسمى من قواهم وشعر معظمهم بيوم بعد هذا اليوم ولكن افسدت الوثنية عقولهم وانحرفت بها عن مسلك السعادة فليس فى سعة العقل الانسانى فى الافراد كافة ان يعرف من الله ما يجب ان يعرف ولا ان يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغى ان يفهم ولا ان يقرر لكل نوع من الاعمال جزاءه فى تلك الدار الآخرة وانما قد تيسر ذلك لقليل ممن اختصه الله بكمال العقل

و نور البصيرة وان لم ينل شرف الاقتداء بهدى نبوى ولو بلغه لكان اسرع الناس الى اتباعه وهؤلاء ربما يصلون بافكارهم الى العرفان من وجه غير مايليق فى الحقيقة ان ينظر منه الى الجلال الالهى

ثم من احوال الحياة الاخرى مالا يمكن لعقل بشرى ان يصل اليه وحده وهو تفصيل اللذائذ والآلام وطرق المحاسبة على الاعمال ولو بوجه ما ومن الاعمال مالا يمكن ان يعرف وجه الفائدة فيه لا فى هذه الحياة ولا فيما بعدها كصور العبادات كما يرى فى أعداد الركعات وبعض الاعمال فى الحج فى الديانة الاسلامية وكبعض الاحتفالات فى الديانة الموسوية وضروب التوسل والزهادة فى الديانة العيسوية كل ذلك مما لا يمكن للعقل البشرى ان يستقل بمعرفة وجه الفائدة فيه ويعلم الله ان فيه سعادته

لهذا كله كان العقل الانسانى محتاجا فى قيادة القوى الادراكية والبدنية الى ماهو خير له فى الحياتين الى معين يستعين به فى تحديد احكام الاعمال وتعيين الوجه فى الاعتقاد بصفات الالوهية ومعرفة ماينبغى ان يعرف من احوال الآخرة وبالجملة فى وسائل السعادة فى الدنيا والآخرة ولا يكون لهذا المعين سلطان على نفسه حتى يكون من بنى جنسه ليفهم منه اوعنه مايقول وحتى يكون ممتازا على سائر الافراد بامر فائق على ماعرف فى العادة وماعرف فى سنة الخليقة ويكون بذلك مبرهنا على انه يتكلم عن الله الذى يعلم مصالح العباد على ماهى عليه ويعلم صفاته الكمالية وما ينبغى ان يعرف منها والحياة الآخرة وما أعد فيها فيكون الفهم عنه والثقة بأنه يتكلم عن العليم الخبير ومعينا للعقل على ضبط ماتشتت عليه اودرك ماضعف عن ادراكه وذلك المعين هو النبى

النبوة تحدد ما ينبغى ان يلحظ فى جانب واجب الوجود من الصفات وما يحتاج اليه البشر كافة من ذلك وتشير الى خاصتهم بما يمكن لهم ان يفضلوا به غيرهم فى مقامات

عرفانهم لكنها لا تحتم الا ما فيه الكفاية للعامة فجاءت النبوات مطالبة بالاعتقاد بوجود الله و بوحدانيته و بالصفات التي اثبتناها على الوجه الذي بيناه وأرشدت الى طرق الاستدلال على ذلك فوجوب المعرفة على هذا الوجه المخصوص وحسن المعرفة وحظر الجهالة او الجحود بشيء مما اوجبه الشرع في ذلك وقبحه مما لا يعرف الا من طريق الشرع معرفة تطمئن بها النفس ولو استقل عقل بشري بذلك لم يكن على الطريق المطلوب من الجزم واليقين والاقتناع الذي هو عماد الطمأنينة فان زيد على ذلك ان العرفان على ما بينه الشرع يستحق المثوبة المعينة فيه وضده يستحق العقوبة التي نص عليها كانت طريق معرفة الوجوب شرعية محضة غير ان ذلك لا ينافي ان معرفة الله على هذه الصفة حسنة في نفسها وانما جاء الشرع مبينا للواقع فهو ليس محدث الحسن ونصوصه تؤيد ذلك وأذكر امثالا من كثير قال تعالى على لسان يوسف أأرباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار يشير بذلك اشارة واضحة الى ان تفرق الآلهة يفرق بين البشر في وجهة قلوبهم الى اعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم وهو يذهب بكل فريق الى التعصب لما وجه قلبه اليه وفي ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى اما اعتقاد جميعهم باله واحد فهو توحيد لمنازع نفوسهم الى سلطان واحد يخضع الجميع لحكمه وفي ذلك نظام اخوتهم وهي قاعدة سعادتهم و إليها ما لهم فيما اعتقدوا ان طال الزمان فكما جاء الشرع مطالبا بالاعتقاد جاء هاديا لوجه الحسن فيه

النبوة تحدد انواع الاعمال التي تناط بها سعادة الانسان في الدارين وتطالبه عن الله بالوقوف عند الحدود التي حددتها وكثيرا ما تبين له مع ذلك وجوه الحسن أو القبح فيما امر به أو نهى عنه فوجوب عمل من المأمور به أو الندب اليه وحظر عمل أو كراهته من المنهي عنه على الوجه الذي حددته الشريعة وعلى انه مثاب عليه باجر كذا ومجازى عليه بعقوبة كذا مما لا يستقل العقل بمعرفته بل طريقة معرفته

شرعية وهو لا ينافي ايضا ان يكون المأمور به حسنا في ذاته بمعنى انه مما يؤدي الى منفعة دنيوية أو أخروية باعتبار أثره في احوال المعيشة أو في صحة البدن أو في حفظ النفس أو المال أو العرض أو في زيادة تعلق القلب بالله جل شأنه كما هو مفصل في الاحكام الشرعية وقد يكون من الاعمال ما لا يمكن درك حسنه ومن المنهيات ما لا يعرف وجه قبحه وهذا النوع لا حسن له الا الامر ولا قبح الا النهي والله أعلم

﴿ الرسالة العامة ﴾

نريد من الرسالة العامة بعثة الرسل لتبليغ شيء من العقائد والاحكام عن الله خالق الانسان وموفيه ما لا غنى له عنه كما وفى غيره من الكائنات سداد حاجاتها ووقاء وجودها على القدر الذي حدد لها في رتبة نوعها من الوجود والكلام في هذا البحث من وجهين الاول وهو ايسرهما على المتكلم وجه ان الاعتقاد ببعثة الرسل ركن من اركان الايمان فيجب على كل مؤمن ومؤمنة ان يعتقد بان الله ارسل رسلا من البشر مبشرين بثوابه ومنذرين بعقابه قاموا بتبليغ امم ما امرهم بتبليغه من تنزيه لذاته وتبيين لسلطانه القاهر على عباده وتفصيل لاحكامه في فضائل اعمال وصفات يطالبهم بها وفي مثالب فعال وخلائق ينهاهم عنها وان يعتقد بوجوب تصديقهم في انهم يبلغون ذلك عن الله ووجوب الاقتداء بهم في سيرهم والائتمار بما امروا به والكف عما نهوا عنه وان يعتقد بان منهم من انزل الله عليه كتبا تشتمل على ما اراد ان يبلغوه من الخبر عنه ومن الحدود والاحكام التي علم الخير لعباده في الوقوف عندها وان هذه الكتب التي انزلت عليهم حق وان يؤمن بانهم مؤيدون من العناية الالهية بما لا يعهد للمقول ولا للاستطاعة البشرية وان هذا الامر الفائق لمعروف البشر هو المعجزة الدالة على صدق النبي في دعواه فمتى ادعى الرسول النبوة واستدل عليها بالمعجزة وجب التصديق برسالته

ومن لوازم ذلك بالضرورة وجوب الاعتقاد بعلو فطرتهم وصحة عقولهم وصدقهم في اقوالهم واما نتهم فى تبليغ ماعهد اليهم ان يبلغوه وعصمتهم من كل مايشوه السيرة البشرية وسلامة ابدانهم مما تنبو عنه الابصار وتنفر منه الاذواق السليمة وانهم منزهون عما يضاد شيأ من هذه الصفات المتقدمة وان ارواحهم ممدودة من الجلال الالهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية اما فيما عدا ذلك فهم بشر يعتريهم مايعترى سائر افراده يأكلون ويشربون وينامون ويسهون وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الاحكام ويمرضون وتمتد اليهم ايدى الظلمة وينالهم الاضطهاد وقد يقتلون

المعجزة ليست من نوع المستحيل عقلا فان مخالفة السير الطبيعى المعروف فى الايجاد مما لم يقم دليل على استحالته بل ذلك مما يقع كما يشاهد فى حال المريض يمتنع عن الاكل مدة ولم يأكل فيها وهو صحيح لمات مع وجود العلة التى تزيد الضعف وتساعد الجوع على الاتلاف فان قيل ان ذلك لابد ان يكون تابعا لناموس آخر طبيعى قلنا ان واضع الناموس هو موجد الكائنات فليس من المحال عليه ان يضع نواميس خاصة بخوارق العادات غاية مافى الامر انا لا نعرفها ولكنا نرى اثرها على يده من اختصه الله بفضل من عنده على انا بعد الاعتقاد بان صانع الكون قادر مختار يسهل علينا العلم بانه لا يمتنع عليه ان يحدث الحادث على اى هيئة وتابعا لاى سبب اذا سبق فى علمه انه يحدثه كذلك

المعجزة لابد ان تكون مقرونة بالتحدي عند دعوى النبوة وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده لان النبي يستند اليها فى دعواه انه مبلغ عن الله فاصدا ره الله لما عند ذلك يعد تأييدا منه له فى تلك الدعوى ومن المحال على الله ان يؤيد الكاذب فان تأييد الكاذب تصديق له وتصديق الكاذب كذب وهو محال على الله فمتى ظهرت المعجزة وهى مما لا يقدر على البشر وقارن ظهورها دعوي

النبوة علم بالضرورة ان الله ما اظهرها الا تصديقا لمن ظهرت على يده وان كان هذا العلم قد يقارنه الانكار مكابرة

واما السحر وامثاله فان سلم ان مظاهره فائقة عن آثار الاجسام والجسمانيات فهي لا تعلو عن متناول القوى الممكنة فلا يقارب المعجزة في شيء

اما وجوب تلك الصفات المتقدمة للانبياء فلأنهم لو انحطت فطرهم عن فطر اهل زمانهم أو تضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس أخر أو مس عقولهم شيء من الضعف لما كانوا اهلا لهذا الاختصاص الالهي الذي يفوق كل اختصاص اختصاصهم بوحيه والكشف لهم عن اسرار علمه ولو لم تسلم ابدانهم عن المنفرات لكان انزعاج النفس لمرآهم حجة للمنكر في انكار دعواهم ولو كذبوا أو خانوا أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم ولكانوا مضلين لا مرشدين فتذهب الحكمة من بعثتهم والامر كذلك لو أدركهم السهو أو النسيان فيما عهد اليهم تبليغه من العقائد والاحكام اما وقوع الخطا منهم فيما ليس من الحديث عن الله ولا له مدخل في التشريع فجوزه بعضهم والجمهور على خلافه وما ورد من مثل ان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن تأبير النخل ثم اباحه لظهور أثره في الاثمار فانما فعله عليه الصلاة والسلام ليعلم الناس ان ما يتخذونه من وسائل الكسب وطرق الصناعات فهو موكول لمعارفهم ونجاربهم ولا حظر عليهم فيه ما دامت الشرائع مرعية والفضائل محمية وما حكاه الله من قصة آدم وعصيانه بالاكل من الشجرة فما خفي فيه سر النهي عن الاكل والمؤاخذة عليه وغاية ما علمناه من حكمته انه كان سببا لعمارة الارض ببني آدم كان النهي والاكل رمزا ان الى طورين من اطوار آدم عليه السلام أو مظهرا ان من مظاهر النوع الانساني في الوجود والله اعلم ومن العسر إقامة الدليل العقلي او اصابة دليل شرعي يقطع بما ذهب اليه الجمهور

حاجة البشر الى الرسالة

سبق لك فى الفصل السابق ما يهم الكلام عليه من الوجه الاول وهو وجه ما يجب على المؤمن اعتقاده فى الرسل والكلام فى هذا الفصل موجه ان شاء الله الى بيان الحاجة اليهم وهو معترك الافهام ومزلة الاقدام ومزدحم الكثير من الافكار والاوهام ولسنا بصدد الاتيان بما قال الاولون ولا عرض ما ذهب اليه الآخرون ولكنا نلزم ما التزمنا فى هذه الوريقات من بيان المعتقد والذهاب اليه من اقرب الطرق من غير نظر الى ما مال اليه المخالف أو استقام عليه الموافق اللهم الا اشارة من طرف خفى أو إلماعا لا يستغنى عنه القول الجلى

والكلام فى بيان الحاجة الى الرسل مسلكان ﴿ الاول ﴾ وقد سبق الاشارة اليه يبتدئ من الاعتقاد ببقاء النفس الانسانية بعد الموت وان لها حياة اخرى بعد الحياة الدنيا تتمتع فيها بنعيم أو تشقى فيها بعذاب أليم وان السعادة والشقاء فى تلك الحياة الباقية معقودان باعمال للمرء فى حياته الفانية سواء كانت تلك الاعمال قلبية كالاعتقادات والمقاصد والارادات أو بدنية كانواع العبادات وللمعاملات

اتفقت كلمة البشر موحدين وثنيين ملليين وفلاسفة الا قليلا لا يقام لهم وزن على ان لنفس الانسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن وانها لا تموت موت فناء وانما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء وان اختلفت مذاهبهم فى تصوير ذلك البقاء وفيما تكون عليه النفس فيه وتباينت مشاربهم فى طرق الاستدلال عليه فمن قائل بالتناسخ فى اجسام البشر أو الحيوان على الدوام ومن ذاهب الى ان التناسخ ينتهى عند ما تبلغ النفس اعلى مراتب الكمال ومنهم من قال انها متى فارقت الجسد عادت الى تجردها عن المادة حافظة لما فيه لذتها أو مابه شقوتها ومنهم من رأى انها تتعلق باجسام اثيرية ألطف من هذه الاجسام المرئية وكان اختلاف

المذاهب فى كنه السعادة والشقاء الاخرويين وفيما هو متاع الحياة الآخرة وفى الوسائل التى تعد للنعيم أو تبعد عن النكال الدائم وتضارب آراء الامم فيه قديما وحديثا مما لا تكاد تحصى وجوهه

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة المنبث فى جميع الانفس عالمها وجاهلها وحشيها ومستأنسها بادیها وحاضرها قديمها وحديثها لا يمكن ان يعد ضلة عقلية أو نزغة وهمية وانما هو الالهامات التى اختص بها هذا النوع فكما الهم الانسان ان عقله وفكره هما عماد بقائه فى هذه الحياة الدنيا وان شذ افراد منه ذهبوا الى ان العقل والفكر ليسا بكافيين للارشاد فى عمل ما أو الى انه لا يمكن للعقل ان يوقن باعتقاد ولا للفكر ان يصل الى مجهول بل قالوا ان لا وجود للعالم الا فى اختراع الخيال وانهم شاكون حتى فى انهم شاكون ولم يطعن شذوذ هؤلاء فى صحة الالهام العام المشعر لسائر افراد النوع ان الفكر والعقل معا كن الحياة وأس البقاء الى الاجل المحدود كذلك قد الهمت العقول واشعرت النفوس ان هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للانسان فى الوجود بل الانسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن ثم يكون حيا باقيا فى طور آخر وان لم يدرك كنهه ذلك الهام يكاد يزاحم البديهة فى الجلاء يشعر كل نفس انها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية من طرق غير محصورة شيقة الى لذائذ غير محدودة ولا واقفة عند غاية مهيأة لدرجات من الكمال لا تحددها اطراف المراتب والغايات معرضة لآلام من الشهوات وتزعات الاهواء وتزوات الامراض على الاجساد ومصارعة الاجواء والحاجات وضروبه من مثل ذلك لا تدخل تحت عد ولا تنتهى عند حد الهام يستلفتها بعد هذا الشعور الى ان واهب الوجود للانواع انما قدر الاستعداد بقدر الحاجة فى البقاء ولم يعهد فى تصرفه العبث والكيل الجزاف فما كان استعداده لقبول ما لا يتناهى من معلومات وآلام ولذائذ وكمالات لا يصح ان يكون بقاؤه قاصرا على

ايام أوسنين معدودات

شعور يهيج بالارواح الى تحسس هذا البقاء الابدى وماعسى ان تكون عليه متى وصلت اليه وكيف الاهتداء واين السبيل وقد غاب المطلوب واعوز الدليل شعورنا بالحاجة الى استعمال عقولنا فى تقويم هذه المعيشة القصيرة الامد لم يكفنا فى الاستقامة على المنهج الاقوم بل لزمتنا الحاجة الى التعليم والارشاد وقضاء الازمنة والاعصار فى تقويم الانظار وتعديل الافكار واصلاح الوجدان وتثقيف الاذهان ولا نزال الى الآن من هم هذه الحياة الدنيا فى اضطراب لا ندرى متى نخلص منه وفى شوق الى طمأنينة لا نعلم متى ننتهى اليها

هذا شأننا فى فهم عالم الشهادة فماذا نؤمل من عقولنا وافكارنا فى العلم بما فى عالم الغيب هل فيما بين ايدينا من الشاهد معالم نهتدى بها الى الغائب وهل فى طرق الفكر ما يوصل كل احد الى معرفة ما قدر له فى حياة يشعر بها وبان لا مندوحة عن القدوم عليها ولكن لم يوهب من القوة ما ينفذ الى تفصيل ما اعد له فيها والشؤن التى لا بد ان يكون عليها بعد مفارقة ما هو فيه أو الى معرفة بيد من يكون تصريف تلك الشؤن هل فى اساليب النظر ما يأخذ بك الى اليقين بما طها من الاعتقادات والاعمال وذلك الكون مجهول لديك وتلك الحياة فى غاية الغموض بالنسبة اليك كلا فان الصلة بين العالمين تكاد تكون منقطعة فى نظر العقل ومرامى المشاعر والاشتراك بينهما الا فيك انت فالنظر فى المعلومات الحاضرة لا يوصل الى اليقين بحقائق تلك العوالم المستقبلة

افليس من حكمة الصانع الحكيم الذى اقام امر الانسان على قاعدة الارشاد والتعليم الذى خلق الانسان وعلمه البيان علمه الكلام للتفاهم والكتاب للتراسل ان يجعل من مراتب الانفس البشرية مرتبة يمدها بمحض فضله بعض من

يصطفيه من خلقه وهو أعلم حيث يجعل رسالته يميزهم بالفطر السليمة و يبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه والامانة على مكنون سره مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم لفاضت له نفسه اوذهبت بعقله جلالته وعظمه فيشرفون على الغيب باذنه و يعلمون ماسيكون من شأن الناس فيه و يكونون فى مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين نهاية الشاهد و بداية الغائب فهم فى الدنيا كأنهم ليسوا من اهلها وهم وفد الآخرة فى لباس من ليس من سكانها ثم يتلقون من امره ان يحدثوا عن جلاله وما خفى على العقول من شؤن حضرته الرفيعة بما يشاء ان يعتقده العباد فيه وما قدر ان يكون له مدخل فى سعادتهم الاخروية وان يبينوا للناس من احوال الآخرة مالا بد لهم من علمه معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم ولا يبعد عن متناول افهامهم وان يبلغوا عنه شرائع عامة تحدد لهم سيرهم فى تقويم نفوسهم وكبح شهواتهم وتعلمهم من الاعمال ماهو مناط سعادتهم وشقائهم فى ذلك الكون المغيب عن مشاعرهم بتفصيله اللاصق علمه باعماق ضمائرهم فى إجماله و يدخل فى ذلك جميع الاحكام المتعلقة بكليات الاعمال ظاهرة و باطنة ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات حتى تقوم بهم الحجة و يتم الاقناع بصدق الرسالة فيكونون بذلك رسلا من لدنه الى خلقه مبشرين ومنذرين

لا ريب ان الذى احسن كل شئ خلقه وأبدع فى كل كائن صنعه وجاد على كل حى بما اليه حاجته ولم يحرم من رحمته حقيرا ولا جليلا من خلقه يكون من رأفته بالنوع الذى اجاد صنعه وأقام له من قبول العلم ما يقوم مقام المواهب التى اختص بها غيره ان ينقذه من حيرته و يخلصه من التخبط فى أهم حياتيه والضلال فى أفضل حاليه يقول قائل ولم يودع فى الغرائز ما تحتاج اليه من العلم ولم يضع فيها الانقياد الى العمل وسلوك الطريق المؤدية الى الغاية فى الحياة الآخرة وما هذا النحو من عجائب

الرحمة فى الهداية والتعليم وهو قول يصدر عن شطط العقل والغفلة عن موضوع البحث وهو النوع الانسانى ذلك النوع على مابه وما دخل فى تقويم جوهره من الروح المفكر وما اقتضاه ذلك من الاختلاف فى مراتب الاستعداد باختلاف افراده وان لا يكون كل فرد منه مستعدا لكل حال بطبعه وان يكون وضع وجوده على عماد البحث والاستدلال فلو الهم حاجاته كما تلهم الحيوانات لم يكن هو ذلك النوع بل كان إما حيوانا آخر كالنحل والنمل او ملكا من الملائكة ليس من سكان هذه الارض

﴿ المسلك الثانى ﴾ فى بيان الحاجة الى الرسالة يأخذ من طبيعة الانسانى نفسه ارتنا الايام غابرها وحاضرها ان من الناس من يختزل نفسه من جماعة البشر و ينقطع الى بعض الغابات اوالى رؤس الجبال و يستأنس الى الوحش و يعيش عيش الاوابد من الحيوان يتغذى بالاعشاب وجذور النبات و يأوى الى الكهوف والمغاور و يتقى بعض العوادى عليه بالصخور والاشجار و يكتفى من الثياب بما يخصف من ورق الشجر اوجلود المسالك من حيوان البر ولا يزال كذلك حتى يفارق الدنيا لكن مثل هذا مثل النحلة تنفرد عن الدبر وتعيش عيشة لا تتفق مع ماقدر لنوعها انما الانسان نوع من تلك الانواع التى غرز فى طبعها ان تعيش مجتمعة وان تعددت بها الجماعات على ان يكون لكل واحد من الجماعة عمل يعود على المجموع فى بقائه المجموع من العمل مالا غنى للواحد عنه فى بقائه و بقائه وأودع فى كل شخص من اشخاصها شعورا بحاجته الى سائر افراد الجماعة التى يشملها اسم واحد فى تاريخ وجود الانسان شاهد بذلك فلا حاجة الى الاطالة فى بيانه وكفاك من الدليل على ان الانسان لا يعيش الا فى جملة ماوهبه من قوة النطق فلم يخلق لسانه لاستعداد التصوير المعانى فى الالفاظ و تأليف العبارات الا لاشتداد الحاجة به الى تفاهم وليس الاضطرار الى التفاهم بين اثنين أو أكثر الا الشهادة بان لا غنى

لاحدهم عن الآخر

حاجة كل فرد من الجماعة الى سائرها مما لا يشتبه فيه وكلما كثرت مطالب الشخص
في معيشته ازدادت به الحاجة الى الايدى العاملة فتمتد الحاجة وعلى اثرها الصلة من
الاهل الى العشيرة ثم الى الامة والى النوع باسره وأيا منا هذه شاهدة على ان الصلة
التابعة للحاجة قد تعم النوع كما لا يخفى هذه الحاجة خصوصا في الامة التي حققت
عنوانها لها صلات وعلائق ميزتها عمن سواها حاجة في البقاء حاجة في التمتع
بمزايا الحياة حاجة في جلب الرغائب ودفع المكاره من كل نوع

لو جرى امر الانسان على اساليب الخلقة في غيره لكانت هذه الحاجة من افضل
عوامل المحبة بين افراده عامل يشعر كل نفس ان بقاءها مرتبط ببقاء الكل
فالكل منها بمنزلة بعض قواها المسخرة لمنافعها ودرء مضارها والمحبة عماد السر
و رسول السكينة الى القلوب هي الدافع لكل من المتحابين على العمل لمصلحة
الآخر الناهض بكل منهما للمدافعة عنه في حالة الخطر فكان من شأن المحبة ان
تكون حفاظا لنظام الامم و روحا لبقائها وكان من حالها ان تكون ملازمة للحاجة
على مقتضى سنة الكون فان المحبة حاجة لنفسك الى من تحب او ما تحب فان اشتدت
كانت ولعا وعشقا

لكن كان من قوانين المحبة ان تنشأ وتدوم بين متحابين اذا كانت الحاجة الى ذات
المحبوب او ما هو فيها لا يفارقها ولا يكون هذا النوع منها في الانسان الا اذا كان
منشؤه امرا في روح المحبوب وشمائله التي لا تفارق ذاته حتى تكون لذة الوصول في
نفس الاتصال لا في عارض يتبعه فاذا عرض التبادل والتعاوض ولوحظ في العلاقة
بينهما تحولت المحبة الى رغبة في الانتفاع بالعوض وتعلقت بالمنتفع به لا بمصدر
الانتفاع وقام بين الشخصين مقام المحبة اما سلطان القوة او ذلة المخافة او الدهاء
والخديعة من الجانبين

يحب الكلب سيده و يخلص له و يدافع عنه دفاع المستميت لما يرى انه مصدر الاحسان اليه فى سداد عوزه فصورة شبعه و ريه و حمايته مقرونة فى شعوره بصورة من يكفلها له فهو يتوقع فقدها بفقده فيحرص عليه حرصه على حياته ولو انه انتقل من حوزته الى حوزة آخر و غاب عنه السنين ثم رآه معرضا للخطر ما عادت اليه تلك الصور يصل بعضها بعضا و اندفع الى خلاصه بما تمكنه القوة ذلك لان الالهام الذى هدى به شعور الكلب ليس مما تتسع به المذاهب فوجدانه يتردد بين الاحسان و مصدره و ليس له ورائهما مذهب فحاجته فى سدعوزه هى حاجته الى القائم بامره فيحبه محبته لنفسه ولا يبخس منها شوب التعاوض في الخدمة

اما الانسان وما ادراك ماهو فليس امره على ذلك ليس ممن يلهم ولا يتعلم ولا ممن يشعر ولا يتفكر بل كان كماله النوعى فى اطلاق مداركه عن القيد و مطالبه عن النهايات و تسليمه على صغره الى العالم الاكبر على جلالته و عظمه يصارعه بعوامله وهى غير محصورة حتى يعتصر منه منافعه وهى غير محدودة و ايداعه من قوى الادراك والعمل ما يعينه على المغالبة و يمكنه من المطالبة بسعيه و رأيه و يتبع ذلك ان يكون له فى كل كائن مما يصل اليه لذة و بجوار كل لذة ألم و مخافة فلا تنتهى رغائبه الى غايه ولا تقف مخاوفه عند نهايه (ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا و اذا مسه الخير منوعا) تفاوتت افراده فى مواهب الفهم و فى قوى العمل و فى الهمة و العزم فمنهم المقصر ضعفا و كسلا المتطاول في الرغبة شهوة و طمعا يرى فى أخيه انه العون له على ما يريد من شؤن وجوده لكنه يذهب من ذلك الى تخيل اللذة فى الاستئثار بجميع ما فى يده ولا يقنع بمعارضته فى ثمرة من ثمار عمله وقد يجد اللذة فى ان يتمتع ولا يعمل و يرى الخير فى ان يقيم مقام العمل اعمال الفكر فى استنباط ضروب الحيل ليتمتع وان لم ينفع و يغلب عليه ذلك حتى يخيل له ان لا ضير عليه لو انفرد بالوجود ممن

يطلب مغالبته ولا يبالى بارساله الى عالم العدم بعد سلبه فكلما حثه الذكر والخيال الى دفع مخافة او الوصول الى لذيذ فتح له الفكر بابا من الحيلة او هيأله وسيلة لاستعمال القوة فقام التناهب مقام التواهب وحل الشقاق محل الوفاق وصار الضابط لسيرة الانسان اما الحيلة وإما القهر

هل وقف الهوى بالانسان عند التنافس فى اللذائذ الجسدانية وتجالد افراده طمعا فى وصول كل الى ما يظنه غاية مطلبه وان لم تكن له غاية كلا ولكن قدر له ان تكون له لذائذ روحانية وكان من اعظم همه ان يشعر بالكرامة له فى نفس غيره ممن تجمعه معهم جامعة ما حسبما يمتد اليه نظره وقد بلغت هذه الشهوة حدا من الانفس كادت تتغلب على جميع الشهوات واخذت لذة الوصول اليها من الارواح مكانا كادت لا تصعد اليه سائر اللذات وهى من افضل العوامل فى احراز الفضائل وتمكين الصلات بين الافراد والامم لو صرفت فيما سيقت لاجله ولكن انحرف بها السبيل كما انحرف بغيرها للاسباب التى اشرنا اليها من التفاوت فى مراتب الادراك والهمة والعزيمة حتى خيل لكثير من العقلاء أن يسعى الى اعلاء منزلته فى القلوب باخافة الامن وازعاج الساكن واشعار القلوب رهبة المخافة لا تهيب الحرمة

هل يمكن مع هذا ان يستقيم امر جماعة بنى نظامهم وعلق بقاؤهم فى الحياة على تعاونهم ورفد بعضهم بعضا فى الاعمال أولا تكون هذه الافاعيل السابق ذكرها سببا فى تفانيهم لا ريب أن البقاء على تلك الاحوال من ضروب المحال فلا بد للنوع الانسانى فى حفظ بقائه من المحبة أو ما ينوب منابها

لجأ بعض اهل البصيرة فى أزمنة مختلفة الى العدل وظنوا كما ظن بعض العارفين ونطق به فى كلمة جليلة أن العدل نائب المحبة نعم لا يخلوا القول من حكمة ولكن من الذى

يضع قواعد العدل و يحمل الكافة على رعايتها قيل ذلك هو العقل فكما كان الفكر والذكر والخيال ينابيع الشقاء كذلك تكون وسائل السعادة وفيها مستقر السكينة وقد رأينا أن اعتدال الفكر وسعة العلم وقوة العقل واصالة الحكم تذهب بكثير من الناس الى ما وراء حجب الشهوات وتعلو بهم فوق ما تخيله المخاوف فيعرفون لكل حق حرمته و يميزون بين لذة ما يفنى ومنفعة ما يبقى وقد جاء منهم افراد فى كل امة وضعوا اصول الفضيلة وكشفوا وجوه الرذيلة وقسموا اعمال الانسان الى ما تحضر لذته وتسوء عاقبته وهو ما يجب اجتنابه والى ما قد يشق احتماله ولكن تسر مغباته وهو ما يجب الاخذ به ومنهم من انفق فى الدعوة الى رأيه نفسه وماله وقضى شهيدا اخلاصه فى دعوة قومه الى ما يحفظ نظامهم فهؤلاء العقلاء هم الذين يضعون قواعد العدل وعلى اهل السلطان ان يحملوا الكافة على رعايتها و بذلك يستقيم امر الناس

هذا قول لا يجافى الحق ظاهره ولكن هل سمع فى سيرة الانسان وهل ينطبق على سنته ان يخضع كافة افراده أو الغالب منهم لرأى العاقل لمجرد انه الصواب وهل كفى فى اقناع جماعة منه كشعب أو امة قول عاقلهم انهم مخطؤن وان الصواب فيما يدعوهم اليه وان اقام على ذلك من الادلة ما هو أوضح من الضياء واجلى من ضرورة المحبة للبقاء كلا لم يعرف ذلك فى تاريخ الانسان ولا هو مما ينطبق على سنته فقد تقدم لنا ان مهب الشقاء هو تفاوت الناس فى الادراك وهم مع ذلك يدعون المساواة فى العقول والتقارب فى الاصول ولا يعرف جمهورهم من حال الفاضل الا كما يعرف من امر الجاهل ومن لم يكن فى مرتبتك من العقل لم يذق مذاقك من الفضل فمجرد البيان العقلى لا يدفع نزاعا ولا يرد طماعا بينة وقد يكون القائم على ما وضع من شريعة العقل ممن يزعم انه ارفع من واضعها فيذهب بالناس مذهب شهواته فتذهب حرمتها و يتهدم بناؤها و يفقد ما قصد بوضعها

أضف الى ماسبق من لوازم نزعات الفكر ونزغات الاهواء شعورا هو الصق بالغريزة البشرية واشد لزوما لها كل انسان مهما علا فكره وقوى عقله او ضعفت فطنته وانحطت فطرته يجد من نفسه انه مغلوب لقوة ارفع من قوته وقوة ما انس منه الغلبة عليه مما حوله وانه محكوم بارادة تصرفه وتصرف ما هو فيه من العوالم في وجوه قد لا تعرفها معرفة العارفين ولا تتطرف اليها ارادة المختارين تشعر كل نفس انها مسوقة لمعرفة تلك القوة العظمى فتطلبها من حسها تارة ومن عقلها اخرى ولا سبيل لها الا الطريق التي حددت لنوعها وهي طريق النظر فذهب كل في طلبها وراء رائد الفكر فمنهم من تأولها ببعض الحيوانات لكثرة نفعها او شدة ضررها ومنهم من تمثلت له في بعض الكواكب لظهور اثرها ومنهم من حجبته الاشجار والاحجار لاعتبارات له فيها ومنهم من تبدت له آثار قوى مختلفة في انواع متفرقة تتماثل في افراد كل نوع وتتخالف بتخالف الانواع فجعل لكل نوع الها ولكن كلما رق الوجدان ولطفت الاذهان وتهذبت البصائر ارتفع الفكر وجلت النتائج فوصل من بلغ به علمه بعض المنازل من ذلك الى معرفة هذه القدرة الباهرة واهتدى الى انها قدرة واجب الوجود غير انه من اسرار الجبروت ما غمض عليه فلم يسلم من الخبط فيه ثم لم يكن له من الميزة الفائقة في قومه ما يحملهم على الاهتداء بهديه فبقي الخلاف ذائما والرشد ضائعا اتفق الناس في الاذعان للافاق قدرهم وعلا متناول استطاعتهم لكنهم اختلفوا في فهم ما تلجئهم الفطرة الى الاذعان له اختلافا كان اشد اثرا في التقاطع بينهم واثارة اعاصير الشقاق فيهم من اختلافهم في فهم النافع والضار لغلبة الشهوات عليهم

ان كان الانسان قد فطر على ان يعيش في جملة لم يمنح مع تلك الفطرة ما منحه النحل وبعض افراد النمل مثلا من الالهام الهادي الى ما يلزم لذلك وانما ترك الى فكره يتصرف به على نحو ما سبق كما فطر على الشعور بقاهر تنساق نفسه بالرغم عنها الى

معرفته ولم يفض عليه مع ذلك الشعور عرفانه بذات ذلك القاهر ولا صفاته وانما التقى به فى مطارح النظر تحمله الافكار فى مجاريها وترمى به الى حيث يدرى ولا يدرى وفى كل ذلك الويل على جامعته والخطر على وجوده افهل منى هذا النوع بالنقص ورزئ بالقصور عن مثل ما بلغه اضعف الحيوانات واحطها فى منازل الوجود نعم هو كذلك لولا ما اتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه

الانسان عجيب فى شأنه يصعد بقوة عقله الى أعلى مراتب الملكوت و يطاول بفكره ارفع معالم الجبروت و يسامى بقوته ما يعظم عن ان يسامى من قوى الكون الاعظم ثم يصغر و يتضاءل و ينحط الى أدنى درك من الاستكانة والخضوع متى عرض له امر مالم يعرف سببه ولم يدرك منشأه ذلك لسر عرفه المستبصرون واستشعرته نفوس الناس اجمعين

من ذلك الضعف قيد الى هداه ومن تلك الضعة اخذ بيده الى شرف سعادته اكل الواهب الجواد لجلته ما اقتضت حكمته فى تخصيص نوعه بما يميزه عن غيره ان ينقص من افراده وكما جاد على كل شخص بالعقل المصرف للحواس لينظر فى طلب اللقمة وستر العورة والتوقى من الحر والبرد جاد على الجملة بما هو أمس بالحاجة فى البقاء وآثر فى الوقاية من غوائل الشقاء وأحفظ لنظام الاجتماع الذى هو عماد كونه بالاجماع من عليه بالنائب الحقيقى عن المحبة بل الراجع بها الى النفوس التى اقفرت منها لم يخالف سنته فيه من بناء كونه على قاعدة التعليم والارشاد غير انه أتاه مع ذلك من اضعف الجهات فيه وهى جهة الخضوع والاستكانة فأقام له من بين افراده مرشدين هادين وميزهم من بينها بخصائص فى انفسهم لا يشركهم فيها سواهم وأيد ذلك زيادة فى الاقناع بآيات باهرات تملك النفوس وتأخذ الطريق على سوابق العقول فيستخذى الطامح و يذل الجامح و يصطدم بها عقل العاقل فيرجع الى رشده و ينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه يطرقون القلوب

بقوارع من امر الله و يدهشون المدارك ببواهر من آياته فيحيطون العقول بما لا مندوحة عن الاذعان له و يستوى فى الركون لما يجيئون به الملك والمملوك والسلطان والصعلوك والعاقل والجاهل والمفضول والفاضل فيكون الاذعان لهم اشبه بالاضطرارى منه بالاختيارى النظرى يعلمونهم ماشاء الله ان يصلح به معاشهم ومعادهم وما اراد ان يعلموه من شؤن ذاته وكمال صفاته وأولئك هم الانبياء والمرسلين فبعثة الانبياء صلوات الله عليهم من متممات كون الانسان ومن اهم حاجاته فى بقائه ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص نعمة اتمها الله لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وسنتكلم عن وظيفتهم بنوع من التفصيل فيما بعد

امكان الوحى

الكلام فى امكان الوحى يأتى بعد تعريفه لنتصور المعنى الذي يراد منه ولنعرف المعنى الحاصل بالمصدر فيفهم معنى المصدر نفسه ولا يعنينا ما تشيره الالفاظ فى الاذهان ولنذكر من اللغة ما يناسبه يقال وحيت اليه وأوحيت اذا كلمته بما تخفيه عن غيره والوحى مصدر من ذلك والمكتوب والرسالة وكل ما ألقيته الى غيرك ليعلمه ثم غلب فيما يلقى الى الانبياء من قبل الله وقيل الوحى اعلام فى خفاء و يطلق و يراد به الموحى وقد عرفوه شرعا انه كلام الله تعالى المنزل على نبى من أنبيائه أما نحن فنعرفه على شرطنا بانه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بانه من قبل الله بواسطة او بغير واسطة والاول بصوت يتمثل لسمعه او بغير صوت و يفرق بينه و بين الالهام بأن الالهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق الى ما يطلب على غير شعور منها من اين أتى وهو اشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور اما امكان حصول هذا النوع من العرفان (الوحى) وانكشاف ما غاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك وسهولة فهمه عند العقل فلا أراه مما يصعب

ادراكه الاعلى من لا يريد ان يدرك و يحب ان يرغم نفسه الفهامة على ان لا تفهم نعم يوجد في كل امة وفي كل زمان اناس يقذف بهم الطيش والنقص في العلم الى ماوراء سواحل اليقين فيسقطون في غمرات من الشك في كل مالم يقع تحت حواسهم الخمس بل قد يدركهم الريب فيما هو من متناولها كما سبقت الاشارة اليه فكأنهم بسقطتهم هذه انحطوا الى ماهو أدنى من مراتب انواع اخرى من الحيوان فينسون العقل وشؤنه وسره ومكنونه و يجدون في ذلك لذة الاطلاق عن قيود الاوامر والنواهي بل عن محابس الحشمة التي تضمهم الى التزام مايليق وتحجزهم عن مقارفة مالا يليق كما هو حال غير الانسان من الحيوان فاذا عرض عليهم شيء من الكلام في النبوات والاديان وهم من انفسهم هام بالاصغاء دافعوه بما أوتوا من الاختيار في النظر وانصرفوا عنه وجعلوا اصابعهم في آذانهم حذر ان يخالط الدليل اذهانهم فيلزمهم العقيدة وتتبعها الشريعة فيحرموا لذة ماذاقوا وما يحبون ان يتذوقوا وهو مرض في الانفس والقلوب يستشفى منه بالعلم ان شاء الله

قلت اي استحالة في الوحي وان ينكشف لفلان مالا ينكشف لغيره من غير فكر ولا ترتيب مقدمات مع العلم ان ذلك من قبل واهب الفكر ومانح النظر متى حفت العناية من ميزته هذه النعمة

مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها بعضا وان الادنى منها لا يدرك ماعليه الاعلى الاعلى وجه من الاجمال وان ذلك ليس لتفاوت المراتب في التعليم فقط بل لا بد معه من التفاوت في الفطر التي لا مدخل فيها الاختيار الانسان وكسبه ولا شبهة في ان من النظريات عند بعض العقلاء ماهو بديهي عند من هو أرقى منه ولا تزال المراتب ترتقي في ذلك الا مالا يحصره العدد وان من ارباب الهمم وكبار النفوس مايرى البعيد عن صغارها قريبا فيسعى اليه ثم

يدركه والناس دونه ينكرون بدايته ويعجبون لنهايته ثم يألفون ماصار اليه كانه من المعروف الذي لا ينازع والظاهر الذي لا يجاحد فاذا أنكره منكر ثاروا عليه ثورتهم في بادئ الامر على من دعاهم اليه ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهرا في كل امة الى اليوم

فاذا سلم ﴿ ولا محيص عن التسليم ﴾ بما اسلفنا من المقدمات فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها عند الوصول اليها أن لا يسلم بان من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر باصل الفطرة ما تستعد به من محض الفيض الالهي لان تتصل بالافق الاعلى وتنتهي من الانسانية الى الذروة العليا وتشهد من امر الله شهود العيان ما لم يصل غيرها الى تعقله أو تحسسه بعصى الدليل والبرهان وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحا على ما يتلقاه احدنا عن اساتذة التعاليم ثم تصدر عن ذلك العلم الى تعليم ما علمت ودعوة الناس الى ما حملت على ابلاغه اليهم وان يكون ذلك سنة الله في كل امة وفي كل زمان على حسب الحاجة يظهر برحمته من يختصه بعنايته ليفي للاجتماع بما يضطر اليه من مصلحة الى أن يبلغ النوع الانساني اشده وتكون الاعلام التي نصبها لهدايته الى سعادته كافية في ارشاده فتختم الرسالة و يغلق باب النبوة كما سنأتي عليه في رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم

اما وجود بعض الارواح العالية وظهورها لاهل تلك المرتبة السامية فما لا استحالة فيه بعد ما عرفنا من انفسنا وارشدنا اليه العلم قديمه وحديثه من اشتمال الوجود على ما هو الطف من المادة وان غيب عنا فاي مانع من ان يكون بعض هذا الوجود اللطيف مشرقا لشيء من العلم الالهي وان يكون لنفوس الانبياء اشراف عليه فاذا جاء به الخبر الصادق حملنا على الاذعان بصحته

لما تمثل الصوت واشباح لتلك الارواح في حس من اختصه الله بتلك المنزلة فقد

عهد عنداعداء الانبياء مالا يبعد عنه فى بعض المصابين بامراض خاصة على زعمهم فقد سلموا ان بعض معقولاتهم يتمثل فى خيالهم و يصل الى درجة المحسوس فيصدق المريض فى قوله انه يرى و يسمع بل يجالد و يصارع ولا شئ من ذلك فى الحقيقة بواقع فان جاز التمثل فى الصور المعقولة ولا منشأ لها الا فى النفس وان ذلك يكون عند عروض عارض على المخ فلم لا يجوز تمثل الحقائق المعقولة فى النفوس العالية وان يكون ذلك لها عند ما تنزع عن عالم الحس وتتصل بحظائر القدس وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل فى اهل تلك الدرجة لاختصاص مزاجهم بما لا يوجد فى مزاج غيرهم وغاية ما يلزم عنه أن يكون لعلاقة أرواحهم بابدانهم شأن غير معروف فى تلك العلاقة من سواهم وهو مما يسهل قبوله بل يتحتم لان شأنهم فى الناس أيضا غير الشؤن المألوفة وهذه المغايرة من اهم ما امتازوا به وقام منها الدليل على رسالتهم والدليل على سلامة شهودهم وصحة ما يحدثون عنه ان امراض القلوب تشفى بدوائهم وان ضعف العزائم والعقول يتبدل بالقوة فى اممهم التى تأخذ بمقالهم ومن المنكر فى البديهة أن يصدر الصحيح من معتل و يستقيم النظام بمختل

اما أرباب النفوس العالية والعقول السامية من العرفاء ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الانبياء ولكنهم رضوا ان يكونوا لهم أولياء وعلى شرعهم ودعوتهم امناء فكثير منهم نال حظه من الانس بما يقارب تلك الحال فى النوع أو الجنس لهم مشاركة فى بعض أحوالهم على شئ من عالم الغيب ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقق حقائقها فى الواقع فهم لذلك لا يستبعدون شيأ مما يحدث به عن الانبياء صلوات الله عليهم ومن ذاق عرف ومن حرم انحرف ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه ظهور الاثر الصالح منهم وسلامة اعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح أو يعجه الذوق السليم

واندفاعهم بباعث من الحق الناطق فى سرائرهم المتملئ فى بصائرهم الى دعوة من يحف بهم الى ما فيه خير العامة وترويح قلوب الخاصة ولا يخلو العالم من متشبهين بهم ولكن ما اسرع ما ينكشف حالهم و يسوء مآلهم وما آل من غر وراءه ولا يكون لهم الا سوء الاثر فى تضليل العقول وفساد الاخلاق وانحطاط شأن القوم الذين رزؤا بهم الا ان يتداركهم الله بلطفه فتكون كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار فلم يبق بين المنكرين لاحوال الانبياء ومشاهدهم و بين الاقرار بامكان ما أنبؤا به بل و بوقوعه الا حجاب من العادة وكثيرا ما حجب العقول حتى عن ادراك أمور معتادة

وقوع الوحى والرسالة

الدليل على رسالة نبي وصدقه فيما يحكى عن ربه ظاهر للشاهد الذى يري حاله و يبصره ما آتاه الله من الآيات البينات و يحقق بالعيان ما ينبيه عن البيان كما سلف فى الوجه الاول من الكلام على الرسالة اما للغائب عن زمن البعثة فدليلها التواتر وهو كما تبين فى علم آخر رواية خبر عن مشهود من جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب وآيته قهر النفس على اليقين بما جاء فيه كالاخبار بوجود مكة أو بان للصين عاصمة تسمى بكين وسبب استحالة التواطؤ على الكذب استيفاء الخبر لشرائط معلومة وخلوه من عوارض تضعف الثقة به ومرجع كل ذلك الى العدد و بعد الراوى عن التشيع لمضمون الخبر

لا نزاع بين العقلاء فى ان هذا النوع من الاخبار يحصل اليقين بالمخبر به وانما النزاع فى اعتبارات تتعلق به ومن الانبياء ما استوفى الخبر عنهم شرائط التواتر كابراهيم وموسى وعيسى وبما جاء به الخبر انهم لم يكونوا فيمن بعثوا بينهم بالاقوى سلطانا ولا بالاكثر مالا ولم يختصهم احد بالعناية بهم لتعليمهم علم ما دعوا اليه وغاية الامر انهم لم يكونوا من الادنين الذين تعافهم النفوس وتنبو عنهم الانظار ومع

ذلك واستحكام السلطان لغيرهم و وفرة المال لديه واستملائه عليهم بما كسب من العلم قاموا بدعوة الى الله على رغم الملوك واجنادهم وصاحوا بهم صيحة زلزلتهم فى عروشهم وادعوا انهم يبلغون عن خالق السموات والارض ما اراد شرعه للناس واقاموا من الدليل ما تصاغرت دونه قوة المعارضة ثم ثبتت فى الكون شرائعهم ثبات الغريزة فى الفطر وكان الخير لامهم فى اتباع ما جاؤا به حالفتهم القوة واحتضنتهم السعادة ما كانوا قائمين عليها ورزأهم الضعف وغالبهم الشقاء ما انحرفوا عنها وخلطوا فيها فهذا وما اقاموه من الادلة عند التحدى لا يصح معه فى العقل ان يكونوا كاذبين فى حديثهم عن الله ولا فى دعواهم انه كان يوحى اليهم ما شرعوا للناس على ان من لا يعتقد ما يقول لا يبقى لمقاله أثر فى العقول والباطل لا بقاء له الا فى الغفلة عنه كالنبات الخبيث فى الارض الطيبة ينبت باهمالها ويغمو باغفالها فاذا لامستها عناية الزارع غلبه الحصب وذهب به الزكاء ولكن تلك الديانات التى جاء بها أولئك الانبياء قامت فى العالم الانسانى ماشاء الله مما قدر لها مقام سائر قواه مع كثرة المعارضين وقوة سلطان المغالبين فلا يمكن ان يكون أسها الكذب ودعامتها الحيلة وكلامنا هذا فى جوهرها الذى يلوح دائما فى خلال ما ألحق بها المبتدعون اما بقية الرسل ممن يجب علينا الايمان بهم فيكفى فى اثبات نبوتهم اثبات رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم فقد أخبرنا برسالتهم وهو الصادق فيما بلغ به وسنأتى على الكلام فى رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى باب على حدته ان شاء الله

﴿ وظيفة الرسل عليهم السلام ﴾

تبين مما تقدم فى حاجة العلم الانسانى الى الرسل أنهم من الامم بمنزلة العقول من الاشخاص وان بعثتهم حاجة من حاجات العقول البشرية قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها ونعمة من نعم واهب الوجود ميز بها الانسان عن بقية الكائنات من جنسه ولكنها حاجة روحية وكل ما لامس الحس منها فالقصد فيه الى الروح

وتطهيرها من دنس الاهواء الضالة او تقويم ملكاتها او ابداعها ما فيه سعادتها في الحياتين اما تفصيل طرق المعيشة والحذق في وجوه الكسب وتطاول شهوات العقل الى درك ما اعد لها وصول اليه من اسرار العلم فذلك مما لا دخل للرسالات فيه الا من وجه الموعظة العامة والارشاد الى الاعتدال فيه وتقرير أن شرط ذلك كله أن لا يحدث ريبا في الاعتقاد بان للكون الها واحدا قادرا عالما حكيما متصفا بما أوجب الدليل ان يتصف به وباستواء نسبة الكائنات اليه في انها مخلوقة له وصنع قدرته وانما تفاوتها فيما اختص به بعضها من الكمال وشرطه ان لا ينال شيء من تلك الاعمال السابقة احدا من الناس بشر في نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق يقتضيه نظام عامة الامة على ما حدد في شريعتها

يرشدون العقل الى معرفة الله وما يجب أن يعرف من صفاته ويبينون الحد الذي يجب ان يقف عنده في طلب ذلك العرفان على وجه لا يشق عليه الاطمئنان اليه ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة يجمعون كلمة الخلق على اله واحد لا فرقة فيه ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده وينهضون نفوسهم الى التعلق به في جميع الاعمال والمعاملات ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات فيما اختلف من الاوقات تذكرة لمن ينسى وتزكية مستمرة لمن يخشى تقوى ما ضعف منهم وتزيد المستيقن يقينا

يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم وتنازعته مصالحهم ولذاتهم فيفصلون في تلك الخصومات بامر الله الصادع ويؤيدون بما يبلغون عنه ما تقوم به المصالح العامة ولا تفوت به المنافع الخاصة يعودون بالناس الى الالفة ويكشفون لهم سر الحيرة ويستلفتونهم الى ان فيها انتظام شمل الجماعة ويفرضون عليهم محامد تنفسهم ليستوطنوها قلوبهم ويشعروها افئدتهم يعلمونهم لذلك ان يرعى كل حق الآخر وان كان لا ينفل حقه وان لا يتجاوز في الطلب حده وان يعين

قويهم ضعيفهم و يمد غنيهم فقيرهم و يهدى راشدهم ضالهم و يعلم عالمهم جاهلهم

يضمون لهم بامر الله حدودا عامة يسهل عليهم ان يردوا اليها أعمالهم كاحترام الدماء البشرية الا بحق مع بيان الحق الذى تهدر له و حظر تناول شئ مما كسبه الغير الا بحق مع بيان الحق الذى يبيح تناوله و احترام الاعراض مع بيان ما يباح و ما يحرم من الابضاع و يشرعون لهم مع ذلك أن يقوموا أنفسهم بالملكات الفاضلة كالصدق و الامانة و الوفاء بالعقود و المحافظة على العهود و الرحمة بالضعفاء و الاقدام على نصيحة الاقوياء و الاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء يحملونهم على تحويل اهوائهم عن اللذائذ الفانية الى طلب الرغائب السامية آخذين فى ذلك كله بطرف من الترغيب و الترهيب و الانذار و التبشير حسبما امرهم الله جل شأنه

يفصلون فى جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم و ما يعرضهم لسخطه عليهم ثم يحيطون بيانهم بنبإ الدار الآخرة و ما اعد الله فيها من الثواب و حسن العقبى لمن وقف عند حدوده و اخذ بأوامره و تجنب الوقوع فى محاظيره يعلمونهم من انباء الغيب ما أذن الله لعباده فى العلم به مما لو صعب على العقل ادراكنهه لم يشق عليه الاعتراف بوجوده

بهذا تطمئن النفوس و تثلج الصدور و يعتصم المرزوء بالصبر انتظارا لجزيل الاجر أو ارضاء لمن بيده الامر و بهذا ينحل اعظم مشكل فى الاجتماع الانسانى لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم فى حله الى اليوم

ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرسين و معلمى الصناعات فليس مما جاؤا له تعليم التاريخ و لا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب و لا بيان ما اختلف من

حركاتها ولا ما استكن من طبقات الارض ولا مقادير الطول فيها والعرض ولا ما تحتاج اليه النباتات فى نموها ولا ما تفتقر اليه الحيوانات في بقاء اشخاصها وانواعها وغير ذلك مما وضعت له العلوم وتسابقت فى الاصول الى دقائقه الفهوم فان ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة هدى الله اليه البشر بما أودع فيهم من الادراك يزيد فى سعادة المحصلين ويقضى فيه بالنكد على المقصرين ولكن كانت سنة الله فى ذلك أن يتبع طريقة التدرج فى الكمال وقد جاءت شرائع الانبياء بما يحمل على الاجمال بالسعى فيه وما يكفل التزامه بالوصول الى ما اعد الله له الفطر الانسانية من مراتب الارتقاء

اما ما ورد في كلام الانبياء من الاشارة الى شئ مما ذكرنا فى احوال الافلاك أو هيئة الارض فانما يقصد منه النظر الى ما فيه من الدلالة على حكمة مبدعه أو توجيه الفكر الى الغوص لادراك اسراره وبدائعه ولفتهم عليهم الصلاة والسلام فى مخاطبة امهم لا يجوز أن تكون فوق ما يفهمون والاضاعت الحكمة فى ارسالهم ولهذا قد يأتى التعبير الذى سيق الى العامة بما يحتاج الى التأويل والتفسير عند الخاصة وكذلك ما وجه الى الخاصة يحتاج الى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة وهذا القسم أقل ما ورد فى كلامهم

على كل حال لا يجوز ان يقام الدين حاجزا بين الارواح وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الامكان بل يجب ان يكون الدين باعثا لها على طلب العرفان مطالبا لها باحترام البرهان فارضا عليها ان تبذل ما تستطيع من الجهد فى معرفة ما بين يديها من العوالم ولكن مع التزام القصد والوقوف فى سلامة الاعتقاد عند الحد ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب الدين

اعتراض مشهود

قال قائل ان كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر وكالا لنظام اجتماعهم وطريقا لسعادتهم الدنيوية والاخروية فما بالهم لم يزالوا اشقياء عن السعادة بعداء يتخالفون ولا يتفقون يتقاتلون ولا يتناصرون يتناهبون ولا يتناصفون كل يستعد للوثبة ولا ينتظر الا مجيء النوبة حشوجلودهم الظلم وملء قلوبهم الطمع عداهل كل ذى دين دينهم حجة لمفارعة من خالفهم فيه واتخذوا منه سببا جديدا للعداوة والعدوان فوق ما كان من اختلاف المصالح والمنافع بل اهل الدين الواحد قد تنشق عصاهم وتختلف مذاهبهم فى فهمه وتتفارق عقولهم فى عقائدهم ويثور بينهم غبار الشر وتنشب اهواؤهم بالفتن فيسفكون دماءهم ويخربون ديارهم الى ان يغلب قويهم ضعيفهم فيستقر الامر للقوة لا للحق والدين فما هو الدين الذى تقول انه جامع الكلمة ورسول المحبة كان سببا فى الشقاق ومضرما للضغينة فما هذه الدعوى وما هذا الاثر

نقول فى جوابه نعم كل ذلك قد كان ولكن بعد زمن الانبياء وانقضاء عهدهم ووقوع الدين فى ايدى من لا يفهمه او يفهمه ويغلو فيه أو لا يغلو فيه ولكن لم يمتزج حبه بقلبه أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن ضاقت سعة عقله عن تصريفه تصريف الانبياء انفسهم أو الخيرة من تبعتهم والا فقل لنا أى نبى جاء امته بالخير الجم والفيض الاعم ولم يكن دينه وافيا بجميع ما كانت تمس اليه حاجتها فى افرادها وجملتها

اظن انك لا تخالفنا فى ان الجمهور الاعظم من الناس بل الكل الا قليلا لا يفهمون فلسفة أفلاطون ولا يقيسون افكارهم وآراءهم بمنطق ارسطو بل لو عرض اقرب المعقولات الى العقول عليهم بأوضح عبارة يمكن ان يأتى بها معبر لما ادركوا منها الا اخيالا لا اثر له فى تقويم النفس ولا فى اصلاح العمل فاعتبر هذه الطبقات فى حالها التى لا تفارقها من تلاعب الشهوات بها ثم انصب نفسك واعظا بينها فى

تخفيف بلا مساقة انزاع اليها فاى الطرق اقرب اليك فى مهاجمة شهواتهم وردها الى الاعتدال فى رغائبها من البديهى انك لا تجد الطريق الاقرب فى بيان مضار الاسراف فى الرغب وفوائد القصد فى الطلب وما ينحو نحو ذلك مما لا يصل اليه ارباب العقول السامية الا بطول النظر وانما تجد اقصد الطرق واقومها أن تأتى اليه من نافذة الوجدان المطلة على سر القهر المحيط به من كل جانب فتذكره بقدرة الله الذى وهبه ما وهب الغالب عليه فى ادنى شؤنه اليه المحيط بما فى نفسه الآخذ بازمة همه وتسوق اليه من الامثال فى ذلك ما يقرب الى فهمه ثم ترى له ما جاء فى الدين المعتقد به من مواعظ وعبر ومن سير السلف فى ذلك الدين ما فيه اسوة حسنة وتنعش روحه بذكر رضا الله اذا استقام وسخطه عليه اذا تقحم عند ذلك يخشع منه القلب وتدمع العين ويستحذى الغضب وتخمد الشهوة والسامع لم يفهم من ذلك كله الا انه يرضى الله وأولياءه اذا اطاع ويسخطهم اذا عصى ذلك هو المشهود من حال البشر غابرهم وحاضرهم ومنكره يسم نفسه انه ليس منهم كم سمعنا ان عيونا بكت وزفرات صعدت وقلوبا خشعت لواعظ الدين . لكن هل سمعت بمثل ذلك بين يدي نصاح الادب وزعماء السياسة

متى سمعنا ان طبقة من طبقات الناس يغلب الخير على اعمالهم لما فيه من المنفعة لامتهم أو خاصتهم وينتفى الشر من بينهم لما يجلبه عليهم من مضار ومهالك هذا امر لم يعهد فى سير البشر ولا ينطبق على فطرهم وانما قوام الملكات هو العقائد والتقاليد ولا قيام للامريين الا بالدين فعامل الدين هو اقوى العوامل فى اخلاق العامة بل والخاصة وسلطانه على نفوسهم اعلى من سلطان العقل الذى هو خاصة نوعهم

قلنا ان منزلة النبوات من الاجتماع هى منزلة العقل من الشخص أو منزلة العلم المنصوب على الطريق للسلوك بل نصعد الى ما فوق ذلك ونقول منزلة السمع والبصر أليس

من وظيفة الباصرة التمييز بين الحسن والقبيح من المناظر و بين الطريق السهلة السلوك والمعابر الوعرة ومع ذلك فقد يسيء البصير استعمال بصره فيتردى فى هاوية يهلك فيها او عيناه سليمتان تلمعان فى وجهه . يقع ذلك لطيش أو اهمال أو غفلة أو لجاج وعناد . وقد يقوم من العقل والحس الدليل على مضرة شئ ويعلم ذلك الباغى فى رايه من اهل الشر ثم يخالف تلك الدلائل الظاهرة و يقتحم المكروه لقضاء شهوة اللجاج أو نحوها ولكن وقوع هذه الامثال لا ينقص من قدر الحس أو العقل فيما خلق لاجله . كذلك الرسل عليهم السلام اعلام هداية نصبها الله على سبيل النجاة فمن الناس من اهتدى بها فانتهى الى غايات السعادة ومنهم من غلط فى فهمها او انحرف عن هديها فانكب فى مهاوى الشقاء فالدين هاد والنقص يعرض لمن دعوا الى الاهتداء به ولا يطعن نقصهم فى كماله واشتداد حاجتهم اليه (يضل به كثيرا و يهدى به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين) الا ان الدين مستقر السكينة ولجأ الطمأنينة به يرضى كل بما قسم له و به يدأب عامل حتى يبلغ الغاية من عمله و به تخضع النفوس الى احكام السنن العامة فى الكون و به ينظر الانسان الى من فوقه فى العلم والفضيلة والى من دونه فى المال والجاه اتباعا لما وردت به الاوامر الالهية . الدين اشبه بالبواعث الفطرية الالهامية منه بالدواعى الاختيارية . الدين قوة من اعظم قوى البشر وانما قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى وكل ما وجه الى الدين من مثل الاعتراض الذى نحن بصدده فتبعته فى أعناق القائمين عليه الناصبين أنفسهم منصب الدعوة اليه او المعروفين بأنهم حفظته و رعاة احكامه وما عليهم فى ابلاغ القلوب بغيتها منه الا ان يهتدوا به و يرجعوا به الى أصوله الطاهرة الاولى و يضعوا عنه أوزار البدع فترجع اليه قوته وتظهر للاعمى حكمته

و بما يقول قائل ان هذه المقابلة بين العقل والدين تميل الى رأى القائلين باهمال

العقل بالمرة فى قضايا الدين و بان أساسه هو التسليم المحض وقطع الطريق على اشعة البصيرة ان تنفذ الى فهم ما أودعه من معارف وأحكام . فنقول لو كان الامر كما عساه ان يقال لما كان الدين علميا يهتدي به وانما الذى سبق تقريره هو ان العقل وحده لا يستقل بالوصول الى مافيه سعادة الامم بدون مرشد الهى كما لا يستقل الحيوان فى درك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها بل لا بد معها من السمع لادراك المسموعات مثلا كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف مايشتبه على العقل من وسائل السعادات والعقل هو صاحب السلطان فى معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لاجله والاذعان لما تكشف له من معتقدات وحدود أعمال كيف ينكر على العقل حقه فى ذلك وهو الذى ينظر فى أدلتها ليصل منها الى معرفتها وانها آتية من قبل الله وانما على العقل بعد التصديق برسالة نبي ان يصدق بجميع ماجاء به وان لم يستطع الوصول الى كنه بعضه والنفوذ الى حقيقته ولا يقضى عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدى الى مثل الجمع بين النقيضين او بين الضدين فى موضوع واحد فى آن واحد فان ذلك مما تنزه النبوات عن ان تأتى به فان جاء ما يوهم ظاهره ذلك فى شئ من الوارد فيها وجب على العقل ان يعتقد ان الظاهر غير مراد وله الخيار بعد ذلك فى التأويل مسترشدا ببقية ماجاء على لسان من ورد المتشابه فى كلامه وفى التفويض الى الله فى علمه وفى سلفنا من الناجين من أخذ بالاول ومنهم من اخذ بالثانى

رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

ليس من غرضنا فى هذه الوريقات ان نلم بتاريخ الامم عامة وتاريخ العرب خاصة فى زمن البعثة المحمدية لنبين كيف كانت حاجة سكان الارض ماسة الى قارعة تهز عروش الملوك وتزلزل قواعد سلطانهم الغاشم وتخفض من أبصارهم المعقودة بعنان السماء الى من دونهم من رعاياهم الضعفاء والى نار تنقض من سمائه

الحق على ادم الانفس البشرية لتأكل ما اعشوشبت به من الاباطيل القاتلة للعقول وصيحة فصحى تزعج الغافلين وترجع بألباب الذاهلين وتنبه المرؤسين الى انهم ليسوا بابعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين والهداة الضالين والقادة المارين وبالجملة تؤب بهم الى رشد يقيم الانسان على الطريق التي صنها الله « اناهديناه السبيل » ليبلغ بسلوكها كماله و يصل على نهجها الى ماأعد فى الدار بن له ولكننا نستعير من التاريخ كلمة يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرخو ذلك العهد نظر امعان وانصاف كانت دولتا العالم دولة الفرس فى الشرق ودولة الرومان فى الغرب فى تنازع وتجالد مستمر دماء بين العالمين مسفوكة وقوى منهوكة وأموال هالكة وظلم من الاحن حالكة ومع ذلك فقد كان الزهو والترف والاسراف والفخفخة والتفنن فى الملاذ بالغة حدا لا يوصف فى قصور السلاطين والامراء والقواد ورؤساء الاديان من كل امة وكان شره هذه الطبقة من الامم لا يقف عند حد فزادوا فى الضرائب و بالغوا فى فرض الاتاوات حتى اثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم وأتوا على مافى ايديها من ثمرات أعمالها وانحصر سلطان القوي فى اختطاف ما بيد الضعيف وفكر العاقل فى الاحتيال لسلب الغافل وتبع ذلك ان استولى على تلك الشعوب ضروب من الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الامن على الارواح والاموال

عمرت مشيئة الرؤساء ارادة من دونهم فعادوا ؤلاء كأشباح اللاعب يديرها من وراء حجاب و يظنها الناظر اليها من ذوى الالباب فقد بذلك الاستقلال الشخصى وظن افراد الرعايا أنهم لم يخلقوا الا لخدمة ساداتهم وتوفير لذاتهم كما هو الشأن فى العجماوات مع من يقتنيها . ضلت السادات فى عقائدها واهوائها وغلبتها على الحق والعدل شهواتها ولكن بقى لها من قوة الفكر أردا بقاياها ولم يفارقها الحذر من ان يصيص النور الالهى الذى يخالط الفطر الانسانية قد يفتق الغلف التى

احاطت بالقلوب و يعزق الحجب التي اسدلت على العقول فتهتدي العامة الى السبيل و يتوارى الجم الغفير على العدد القليل ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء ان ينشؤا سحبا من الاوهام و يهيؤا كسفا من الاباطيل والخرافات ليقذفوا بها في عقول العامة فيغلظ الحجاب و يعظم الرين و يختنق بذلك نور الفطرة و يتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم وصرح الدين بلسان رؤسائه انه عدو العقل وعدو كل ما يثمره النظر الى ما كان تفسير الكتاب مقدس وكان لهم في المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب ومدد لا ينفد هذه حالة الاقوام كانت في معارفهم وذلك كان شأنهم في معايشهم عبيدا ذلاء حيارى في جهالة عمياء اللهم الا بعض شوارد من بقايا الحكمة الماضية والشرائع السابقة آوت الى بعض الاذهان ومعها مقت الحاضر ونقص العلم بالغابر ثارت الشبهات على اصول العقائد وفروعها بما انقلب من الوضع وانعكس من الطبع فكان يري الدنس في مظنة الطهارة والشره حيث تنتظر القناعة والدعارة حيث ترجى السلامة والسلام مع قصور النظر عن معرفة السبب وانصرافه لاول وهلة الى ان مصدر كل ذلك هو الدين فاستولى الاضطراب على المدارك وذهب بالناس مذهب الفوضى في العقل والشريعة معا وظهرت مذاهب الاباحيين والدهريين في شعوب متعددة وكان ذلك و يلا عليها فوق ما رزئت به من سائر الخطوب

وكانت الامة العربية قبائل متخالفة في النزعات خاضعة للشهوات فخر كل قبيلة في قتال اختها وسفك دماء ابطالها وسبي نسائها وسلب اموالها تسوقها المطامع الى المغانم و يزين لها السيآت فساد الاعتقادات وقد بلغ العرب من سخافة العقل حد اصنعوا أصنامهم من الحلوي ثم عبدوها فلما جاعوا أكلوها و بلغوا من تضعضع الاخلاق وهنا قتلوا فيه بناتهم تخلصا من عار حياتهن او تنصلا من نفقات معيشتهن و بلغ الفحش منهم مبلغا لم يعد معه للعفاف قيمة و بالجملة فكانت

ربط النظام الاجتماعي قد تراخت بقدها في كل امة وانقصمت عراها عند كل طائفة

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الاقوام ان يؤيدهم برجل منهم يوحى اليه رسالته ويمنحه عنايته ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم التي اظلت رؤس جميع الامم نعم كان ذلك وله الامر من قبل ومن بعد

في الليلة الثانية عشر من ربيع الاول عام الفيل (٢٠ ابريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام) ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي بمكة ولد يتيما توفي والده قبل ان يولد ولم يترك له من المال الا خمس جمال وبعض نعاج وجارية ويروى قبل من ذلك وفي السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضا فاحتضنه جده عبد المطلب وبعد سنتين من كفالته توفي جده فكفله من بعده عمه ابو طالب وكان شهما كريما غير انه من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله وكان صلى الله عليه وسلم من بين عمه وصبية قومه كاحدهم على ما به من يتم فقد فيه الابوين معا وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول ولم يقم على تربيته مهذب ولم يمن بتثقيفه مؤدب بين اتراب من نبت الجاهلية وعشراء من حلفاء الوثنية وأولياء من عبدة الاوهام وأقرباء من حفدة الاصنام غير انه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدنا وعقلا وفضيلة وأدبا حتى عرف بين اهل مكة وهو في ريعان شبابه بالامين أدب الهي لم تجر العادة بان تزين به نفوس الايتام من الفقراء خصوصا مع فقر القوام فاكتمل صلى الله عليه وسلم كاملا والقوم ناقصون رفيعا والناس منحطون موحدا وهم وثنيون سلما وهم شاغبون صحيح الاعتقاد وهم واهمون مطبوعا على الخير وهم به جاهلون وعن سبيله عادلون

من السنن المعروفة ان يتيما فقيرا أميا مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته الى زمن كهولته ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه لا سيما ان كان من ذوي قرابته

و اهل عصبته ولا كتاب يرشده ولا استاذ ينبهه ولا عضد اذا عزم يؤيده فلو جرى الامر فيه على جارى السنن لنشأ على عقائدهم وأخذ بمذاهبهم الى ان يبلغ مبلغ الرجال ويكون للفكر والنظر مجال فيرجع الى مخالفتهم اذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم كما فعل القليل ممن كانوا على عهده ولكن الامر لم يجر على سنته بل بغضت اليه الوثنية من مبدإ عمره فعاجلته طهارة العقيدة كما بادره حسن الخليقة وما جاء فى الكتاب من قوله (ووجدك ضالا فهدى) لا يفهم منه انه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد او على غير السبيل القويم قبل الخلق العظيم حاش لله ان ذلك لهو الافك المبين وانما هى الحيرة تلم بقلوب اهل الاخلاص فيما يرجعون الناس من الخلاص وطلب السبيل الى ما هدوا اليه من انقاذ الهالكين وارشاد الضالين وقد هدى الله نبيه الى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته

وجد شيأ من المال يسد حاجته (وقد كان له فى الاستزادة منه ما يرفه معيشته) بما عمل لخديجة رضى الله عنها فى تجارتها وبما اختارته بعد ذلك زوجا لها وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناؤه وعون على بلوغه ما كان عليه اعاظم قومه لكنه لم ترقه الدنيا ولم تغره زخارفها ولم يسلك ما كان يسلكه مثله فى الوصول الى ما ترغبه الانفس من نعيمها بل كلما تقدم به السن زادت فيه الرغبة مما كان عليه الكافة ونما فيه حب الانفراد والانقطاع الى الفكر والمراقبة والتحنث بمناجاة الله تعالى والتوسل اليه فى طلب المخرج من همه الاعظم فى تخليص قومه ونجاة العالم من الشر الذى تولاه الى ان انفتق له الحجاب عن عالم كان يحفه اليه الالهام الالهى وتجلى عليه النور القدسى وهبط عليه الوحى من المقام العلى فى تفصيل ليس هذا موضعه

لم يكن من آبائه ملك فيطالب بما سلب من ملكه وكانت نفوس قومه فى انصراف تام عن طلب مناصب السلطان وفى قناعة بما وجدوه من شرف النسبة الى المكان دل

عليه ما فعل جده عبد المطلب عند زحف أبرهة الحبشي على ديارهم ، جاء الحبشي لينتقم من العرب بهدم معبدهم العام و بيتهم الحرام ومنتجع حجيجهم ومستوى العلية من آلهتهم ومنتهى حجة القرشيين في مفاخرتهم لبني قومهم وتقدم بعض جنده فاستاق عددا من الابل فيها لعبد المطلب مائتا بعير وخرج عبد المطلب في بعض قريش لمقابلة الملك فاستدناه وسأله حاجته فقال هي ان ترد الى مائتي بعير اصبتها لي فلامه الملك على المطلب الحقير وقت الخطب الخطير فاجابه انا رب الابل اما البيت فله رب يحميه هذا غاية ما ينتهي اليه الاستسلام وعبد المطلب في مكانه من الرياسة على قريش فاين من تلك المكانة محمد صلى الله عليه وسلم في حاله من الفقر ومقامه في الوسط من طبقات اهله حتى ينتجع ملكا او يطلب سلطانا لا مال لاجاء لاجند لا اعوان لا سليقة في الشعر لا براعة في الكتاب لا شهرة في الخطاب لا شيء كان عنده مما يكسب المكانة في نفوس العامة او يرقى به الى مقام ما بين الخاصة ما هذا الذي رفع نفسه فوق النفوس ما الذي اعلى رأسه على الرؤس ما الذي سما بهمته على الهمم حتى انتدب نفسه لارشاد الامم وكفالته لهم كشف الغمم بل واحياء الرمم ما كان ذلك الا ما القى الله في روعه من حاجة العالم الى مقوم لما زاغ من عقائدهم ومصلح لما فسد من اخلاقهم وعوائدهم ما كان ذلك الا وجدانه ريح العناية الالهية ينصره في عمله ويمده في الانتهاء الى امله قبل بلوغ اجله ما هو الا الوحي الالهي يسمى نوره بين يديه يضيء له السبيل و يكفيه مؤنة الدليل ما هو الا الوعد السماوي قام لديه مقام القائد والجندي أرأيت كيف نهض وحيدا فريدا يدعو الناس كافة الى التوحيد والاعتقاد بالعلي المجيد والكل ما بين وثنية متفرقة ودهرية وزندقة نادى في الوثنيين بترك اوثانهم ونبذ معبوداتهم وفي المشبهين المنغمسين في الخلط بين اللاهوت الاقدس و بين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم وفي الثانوية باقراد الله واحد بالتصرف في الاكوان ورد كل شيء في

الوجود اليه اهاب بالطبيعيين ليمدوا بصائرهم الى ماوراء حجاب الطبيعة فيتنوروا
سر الوجود الذى قامت به صماح بذوى الزعامة ليهبطوا الى مصاف العامة فى
الاستكانة الى سلطان معبود واحد هو فاطر السموات والارض والقابض على
ارواحهم فى هياكل اجسادهم . تناول المنتحلين منهم لرتبة التوسط بين العباد
وبين ربهم الاعلى فبين لهم بالدليل وكشف لهم بنور الوحى ان نسبة اكبرهم الى الله
كنسبة اصغر المعتقدين بهم وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لانفسهم من المكانات
الربانية الى ادنى سلم من العبودية والاشتراك مع كل ذى نفس انسانية فى
الاستعانة برب واحد يستوى جميع الخلق فى النسبة اليه لا يتفاوتون الا فيما فضل
به بعضهم على بعض من علم او فضيلة وخز بوعظه عبيد العادات واسراء التقليد
ليعتقوا ارواحهم مما استعبدوا له ويحلوا اغلالهم التى اخذت بايديهم عن العمل
وقطعتهم دون الامل مال على قراءة الكتب السماوية والقائمين على ما اودعته من
الشرائع الالهية فبكت الواقفين عند حروفها بغباوتهم وشدد النكير على المحرفين
لها الصارفين لالفاظها الى غير ما قصد من وحيها اتباعا لشهوتهم ودعاهم الى فهمها
والتحق بسرعلمها حتى يكونوا على نور من ربهم واستلفت كل انسان الى ماودع
فيه من المواهب الالهية ودعا الناس اجمعين ذكورا واناثا عامة وسادات الى عرفان
انفسهم وانهم من نوع خصه الله بالعقل وميزه بالفكر وشرفه بهما وبحرية الارادة
فيما يرشده اليه عقله وفكره وان الله عرض عليهم جميع ما بين ايديهم من الاكوان
وسلطهم على فهمها والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد الا الاعتدال والوقوف عند
حدود الشريعة العادلة والفضيلة الكاملة واقدرهم بذلك على ان يصلوا الى معرفة
خالقهم بعقولهم وافكارهم بدون واسطة احد الا من خصهم الله بوحيه وقد وكل
اليهم معرفتهم بالدليل كما كان الشأن فى معرفتهم لبدع الكائنات اجمع والحاجة الى
أولئك المصطفين انما هو فى معرفة الصفات التى اذن الله ان تعلم منه وليست فى

الاعتقاد بوجوده وقرار ان لا سلطان لاحد من البشر على آخر منه الا ما رسمته الشريعة وفرضه العدل ثم الانسان بعد ذلك يذهب بارادته الى ما سخرت له بمقتضى الفطرة . دعا الانسان الى معرفة انه جسم وروح وانه بذلك من عالمين متخالفين وان كانا ممتزجين وانه مطالب بخدمتهما جميعا وايفاء كل منهما ما قررت له الحكمة الالهية من الحق . دعا الناس كافة الى الاستعداد في هذه الحياة لما سيلاقون في الحياة الاخرى وبين لهم ان خير زاد يتزودوه العامل هو الاخلاص لله في العبادة والاخلاص للعباد في العدل والنصيحة والارشاد

قام بهذه الدعوة العظمى وحده ولا حول له ولا قوة كل هذا كان منه والناس احياء ما ألفوا وان كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة اعداء ما جهلوا وان كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة كل هذا والقوم حوالية أعداء أنفسهم وعبيد شهواتهم لا يفقهون دعوته ولا يعقلون رسالته عقدت اهداب بصائر العامة منهم باهواء الخاصة وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر في دعوى فقير أمي مثلها لا يرون فيه ما يرفعه الى نصيحتهم والتطاول الى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف

لكنه في فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة ويناضلهم بالدليل ويأخذهم بالنصيحة ويزعجهم بالزجر وينبههم للعبر ويحوطهم مع ذلك بالموعظة الحسنة كأنما هو سلطان قاهر في حكمه عادل في امره ونهيه أواب حكيم في تربية أبنائه شديد الحرص على مصالحهم رؤوف بهم في شدته رحيم في سلطته . ما هذه القوة في ذلك الضعف ما هذا السلطان في مظنة العجز ما هذا العلم في تلك الامية ما هذا الرشاد في غمرات الجاهلية . انه هو الا خطاب الجبروت الاعلى قارعة القدرة العظمى نداء العناية العليا ذلك خطاب الله القادر على كل شيء الذي وسع كل شيء رحمة وعلما . ذلك امر الله الصادع يقرع الآذان ويشق الحجب ويمزق الغلف

وينفذ الى القلوب على لسان من اختاره لينطق به واختصه بذلك وهو اضعف قومه ليقيم من هذا الاختصاص برهانا عليه بعيدا عن الظنة بريأ من التهمة لانه على غير المعتادين خلقه . أى برهان على النبوة اعظم من هذا اى قام يدعو الكاتبين الى فهم ما يكتبون وما يقرؤن بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليمحصوا ما كانوا يعلمون . فى ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء ناشئ بين الواحين هب لتقويم عوج الحكماء غريب فى اقرب الشعوب الى سذاجة الطبيعة وابعدها عن فهم نظام الخليقة والنظر فى سننه البديعة اخذ يقرر للعالم اجمع اصول الشريعة ويخط للسعادة طرقا لن يهلك سالكها ولن يخلص تاركها ماهذا الخطاب المفحم ماذلك الدليل الملجم . أأقول ماهذا بشرا ان هذا الا ملك كريم لا لا اقول ذلك ولكن اقول كما امره الله ان يصف نفسه انه هو الا بشر مثلكم يوحى اليه . نبى صدق الانبياء ولكن لم يأت فى الاقناع برسالته بما يلهى الابصار أو يحير الحواس أو يدهش المشاعر ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما اعدت له واختص العقل بالخطاب وحاكم اليه الخطأ والصواب وجعل فى قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة وآية الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

القرآن

جاءنا الخبر المتواتر الذي لا تتطرق اليه الريبة ان النبي صلى الله عليه وسلم كان فى نشأته وأميته على الحال التى ذكرنا وتواترت اخبار الامم كافة على انه جاء بكتاب قال انه انزل عليه وان ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب فى المصاحف المحفوظ فى صدور من عنى بحفظه من المسلمين الى اليوم كتاب حوى من اخبار الامم الماضية ما فيه معتبر للاجيال الحاضرة والمستقبلة تقف على الصحيح منها وغادر الاباطيل التى الحقتها الاوهام بها ونبه على وجوه العبرة فيها حكى عن الانبياء ما شاء

الله ان يقص علينا من سيرهم وما كان بينهم و بين امهم و برأهم مما رماهم به اهل دينهم المعتقدون برسالتهم آخذ العلماء من الملل المختلفة على ما افسدوا من عقائدهم وما خلطوا في احكامهم وما حرفوا بالتأويل في كتبهم • وشرع للناس احكاما تنطبق على مصالحهم وظهرت الفائدة في العمل بها والمحافظة عليها وقام بها العدل وانتظم بها شمل الجماعة ما كانت عند حد ما قرره ثم عظمت المضرة في اهمالها والانحراف عنها أو البعد بها من الروح الذي اودعته فتفاوت بذلك جميع الشرائع الوضعية كما يتبين للناظر في شرائع الامم ثم جاء بعد ذلك بحكم ومواعظ وآداب تخشع لها القلوب وتهش لاستقبالها العقول وتنصرف وراءها الهمم انصرافها في السبيل الامم • نزل القرآن في عصر اتفق الرواة وتواترت الاخبار على انه ارقى الاعصار عند العرب واغزرها مادة في الفصاحة وانه الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطاب وانفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفطنة والذكاء هو الغلب في القول والسبق الى اصابة مكان الوجدان من القلوب ومقر الاذعان من العقول وتفانيهم في المفاخرة بذلك مما لا يحتاج الى الاطالة في بيانه

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبي صلى الله عليه وسلم والتماسهم الوسائل قريبها و بعيدها لابطال دعواه وتكذيبه في الاخبار عن الله واتيانهم في ذلك على مبلغ استطاعتهم وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته والامراء الذين يدعوهم السلطان الى مناواته والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بانوفهم من منابعته وقد اشتد جميع اولئك في مقاومته وانبروا بقواهم عليه استكبارا عن الخضوع له وتمسكا بما كانوا عليه من اديان آبائهم وحمية لعقائدهم وعقائد اسلافهم وهو مع ذلك يخطئ آراءهم و يسفه احلامهم و يحقر اصنامهم و يدعوهم الى عالم تعهده اياهم ولم تحقق لهم اعلامهم

ولا حجة له بين يدي ذلك كله الا تحديهم بالاتيان بمثل اقصر سورة من ذلك الكتاب أو بعشر سور من مثله وكان في استطاعتهم ان يجمعوا اليه من العلماء والفصحاء البلغاء ماشاؤا ليأتوا بشيء من مثل ما أتى به ليبطلوا الحجة ويفحموا صاحب الدعوة

جاءنا الخبر المتواتر انه مع طول زمن التحدي ولجاج القوم في التعدي اصيبوا بالعجز ورجعوا بالخيبة وحقت له الكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام وقضى حكمه الالهي على جميع الاحكام . أليس في ظهور مثل هذا الكتاب على لسان امي اعظم معجزة وادل برهان على انه ليس من صنع البشر وانما هو النور المنبعث عن شمس العلم الالهي والحكم الصادر عن المقام الرباني على لسان الرسول الامي صلوات الله عليه

هذا وقد جاء في الكتاب من اخبار الغيب ماصدقته حوادث الكون كالخبر في قوله غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين وكالوعد الصريح في قوله وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم الآية وقد تحقق جميع ذلك وفي القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته . ومن الكلام عن الغيب فيه ماجاء في تحدي العرب به واكتفائه في الرجوع عن دعواه بأن يأتوا بسورة من مثله مع سعة البلاد العربية ووفرة سكانها وتباعد أطرافها وانتشار دعوته على لسان الوافدين الى مكة من جميع أرجائها ومع انه لم يسبق له صلى الله عليه وسلم السياحة في نواحيها والتعرف برجالها وقصور العلم البشري عادة عن الاحاطة بما أودع في قوى أمة عظيمة كالامة العربية فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشيء من مثل ماتحداهم به ليس قضاء بشريا ومن الصعب بل من المتعذر ان يصدر عن عاقل التزام كالذي التزمه وشرط كالذي شرطه على نفسه

لغلبة الظن عند من له شئ من العقل ان الارض لا تخلو من صاحب قوة مثل قوته وانما ذلك هو الله المتكلم والعليم الخبير هو الناطق على لسانه وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهضهم له و بلوغ ما حثهم عليه

يقول واهم ان العجز حجة على من عجز فان العجز هي حجة الافحام و الزام الخصم وقد يلتزم الخصم ببعض المسلمات عنده فيفحم و يعجز عن الجواب فتلزمه الحجة ولكن ليس ذلك بملزم لغيره ممن لا يسلم غيره بما سلمه فلا يفحمه الدليل بل يجد الى ابطاله أقرب سبيل

وهووهم يضمحل بما قدمناه من البيان اذ لا يوجد من المشابهة بين اعجاز القرآن وافحام الدليل الا انه يوجد عن كل منهما عجز وشتان بين العجزين و بعد ما بين وجهتي الاستدلال فيهما فان اعجاز القرآن برهن على امر واقعي وهو تقاصر القوى البشرية دون مكانته من البلاغة وقلنا القوى البشرية لانه جاء بلسان عربي وقد عرف الكتاب عند جميع العرب في عهد النبوة وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرنا وحال القوم في العناد كما بينا ومع ذلك لم يمكن للعرب ان يعارضوه بشئ من مبلغ عقولهم فلا يعقل ان فارسيا او هنديا او رومانيا يبلغ من قوة البلاغة في العربية ان يأتي بما عجز عنه العرب انفسهم وتقاصر القوي جميعها عن ذلك مع التماثل بين النبي و بينهم في النشأة والتربية وامتياز الكثير منهم بالعلم والدراسة دليل قاطع على ان الكلام ليس مما اعتيد صدوره عن البشر فهو اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه ثم ما ورد في القرآن من تسجيل العجز عليهم والتعرض للاستدام بجميع ما أوتوا من قوة مما يدل على الثقة من أمره مع ما سبق تعداده من الامور التي لا يمكن معها لعاقل ان يقف ذلك الموقف مع طول الزمن وانفساح الاجل كل ذلك يدل على ان الناطق هو عالم الغيب والشهادة لا رجل يغط و ينصح على العادة

فثبت بهذه المعجزة العظمى وقام الدليل بهذا الكتاب الباقي الذي لا يعرض عليه التغيير ولا يتناوله التبديل ان نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله الى خلقه فيجب التصديق برسالته والاعتقاد بجميع ما ورد في الكتاب المنزل عليه والاخذ بكل ما ثبت عنه من هدى وسنة متبعة وقد جاء في الكتاب انه خاتم الانبياء فوجب علينا الايمان بذلك كذلك

بقي علينا ان نشير الى وظيفة الدين الاسلامي ومادعا اليه على وجه الاجمال وكيف انتشرت دعوته بالسرعة المعروفة والسر في كون النبي صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين صلوات الله عليه وعليهم اجمعين

الدين الاسلامي او الاسلام

هو الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وعقله من وعاه عنه من صحابته ومن عاصرهم وجرى العمل عليه حينا من الزمن بينهم بلا خلاف ولا اعتساف في التأويل ولا ميل مع الشيع واني مجمله في هذا الباب مقتديا بالكتاب المجيد في التفويض لذوي البصائر ان يفصلوه وما سندي فيما اقول الا الكتاب والسنة القويمة وهدى الراشدين

جاء الدين الاسلامي بتوحيد الله تعالى في ذاته وافعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين فاقام الادلة على ان للكون خالقا واحدا متصفا بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية كالعلم والقدرة والارادة وغيرها وعلى انه لا يشبهه شيء من خلقه وان لا نسبة بينه وبينهم الا انه موجدهم وانهم له واليه راجعون (قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) وما ورد من الفاظ الوجه واليدين والاستواء ونحوها له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب ولم يشتبهوا في شيء منها وان ذاته وصفاته يستحيل عليها ان تبرز في جسد أو روح احد من العالمين وانما يختص سبحانه من شاء من عباده بما شاء من علم وسلطان على ما يريد ان

يسلطه عليه من الاعمال على سنة له فى ذلك سنها فى علمه الازلى الذى لا يعتريه التبديل ولا يدنو منه التغيير وحظر على كل ذى عقل ان يعترف لاحد بشئ من ذلك الا ببرهان ينتهى فى مقدماته الى حكم الحس وما جاوره من البديهيات التى لا تنقص عنه فى الوضوح بل قد تعلوه كاستحالة الجمع بين النقيضين او ارتفاعهما معا او وجوب ان الكل اعظم من الجزء مثلا وقضى على هؤلاء كغيرهم بانهم لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا وغاية امرهم انهم عباد مكرمون وان ما يجريه على ايديهم فانما هو باذن خاص وبتيسير خاص فى موضع خاص لحكمة خاصة ولا يعرف شأن الله فى شئ من هذا الا ببرهان كما تقدم

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيأ وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون) والشكر عند العرب معروف انه تصريف النعمة فيما كان الانعام بها لاجله دل بمثل هذا على ان الله وهبنا من الحواس وغرز فينا من القوى ما نصرفه فى وجوهه بمحض تلك الموهبة فكل شخص كاسب لعمله بنفسه لها او عليها وأما ما تتحير فيه مداركنا وتقصر دونه قوانا وتشعر فيه أنفسنا بسلطان يقهرها او ناصر يمدها فيما أدركها العجز عنه على انه فوق ما نعرف من القوى المسخرة لها وكان لا بد من الخضوع له والرجوع اليه والاستعانة به فذلك انما يرد الى الله وحده فلا يجوز ان تخشع إلا له ولا ان تطمئن الا اليه وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه فى الحياة الاخرة لا يسوغ لها ان تلجأ الى احد غير الله فى قبول اعمالها من الطيبات ولا فى غفران أفاعيلها من السيئات فهو وحده مالك يوم الدين

اجتثت بذلك جذور الوثنية وما وليها مما لو اختلف عنها فى الصورة والشكل او العبارة واللفظ لم يختلف عنها فى المعنى والحقيقة تبع هذا طهارة العقول من الاوهام الفاسدة التى لا تنفك عن تلك العقيدة الباطلة ثم تنزه النفوس عن الملكات

السيئة التي كانت تلازم تلك الاوهام وتخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف
المعبودين وعليهم وارتفع شأن الانسان وسمعت قيمته بما صار اليه من الكرا
بحيث اصبح لا يخضع لاحد الا لخالق السموات والارض وقاهر الناس اجمع
وأبيح لكل احد بل فرض عليه ان يقول كما قال ابراهيم (إني وجهت وجهي
للذي فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين) وكما أمر رسول الله
صلى الله عليه وسلم ان يقول (ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين
لا شريك له وبذلك أمرت وأنا اول المسلمين) تجلت بذلك للانسان نفسه حر
كريمة وأطلقت ارادته من القيود التي كانت تعقدها بارادة غيره سواء كانت ارا
بشرية ظن انها شعبة من الارادة الالهية او انها هي كارادة الرؤساء والمسيطر
او ارادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن في القبور والاحجار والاشج
والكواكب ونحوها او افتكت عزيمته من اسر الوسائط والشفعاء والمتكم
والعرفاء وزعماء السيطرة على الاسرار ومنتحلي حق الولاية على اعمال العبا
فيما بينه وبين الله الزاعمين وانهم واسطة النجاة وبأيديهم الاشقاء والاسعاد وبالجم
فقد أعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين صار الانسان بالتوحي
عبد الله خاصة حرا من العبودية لكل ما سواه فكان له من الحق ما للحر على الح
لا على في الحق ولا وضيع ولا سافل ولا رفيع ولا تفاوت بين الناس الا بتفاوت
اعمالهم ولا تفاضل الا بتفاضلهم في عقولهم ومعارفهم ولا يقربهم من الله الا
طهارة العقل من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء ثم بهذا خلصت
أموال الكاسبين وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العام
وكفت عنها أيدي العالة وأهل البطالة ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته
لا بعمله وخدمته

باب الاسلام بالعمل كل قادر عليه وقر ان لكل نفس ما كسبت وعليها
ما اكتسبت ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾
« وأن ليس للانسان إلا ماسعى » واباح لكل احد ان يتناول من الطيبات ماشاء
كلا وشربا ولباسا وزينة ولم يحظر عليه الا ما كان ضارا بنفسه أو بمن يدخل فى
ولايته أو ما تعدى ضرره الى غيره وحد له فى ذلك الحدود العامة بما ينطبق على
مصالح البشر كافة فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله واتسع المجال
للسابق الهمم فى السعى حتى لم يسد لها عقبة تتعثر بها اللهم الا حقا محترما
تصطدم به

انحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر فبددت فيالقه المتغلبة
على النفوس واقتلعت اصوله الراسخة فى المدارك ونسفت ما كان له من دعائم
وأركان فى عقائد الامم صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة
طال عليه الغيب فيها كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق خلصت اليه هينمة من سدنة
هياكل الوهم ﴿ ثم فان الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة
والازواد قليلة ﴾ علا صوت الاسلام على وساوس الطغام وجهر بان الانسان لم
يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على ان يهتدى بالعلم والاعلام اعلام الكون ودلائل
الحوادث وانما المعلمون منبهون ومرشدون والى طرق البحث هادون صرح
فى وصف اهل الحق بانهم « الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه » فوصفهم
بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا بما عرفوا احسنه ويطرحوا
ما لم يتبينوا صحته ونفعه ومال على الرؤساء فانزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون
وينهون ووضعهم تحت انظار مرؤسيهم يخبرونهم كما يشاؤن ويمتحنون مزاعمهم
حسبما يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون
صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الابناء وسجل

الحمق والسفاهة على الآخذين باقوال السابقين ونبه على ان السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسميا لعقول على عقول ولا لاذهان على اذهان وانما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان بل للاحق من علم الاحوال الماضية واستمداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها فى الكون مالم يكن لمن تقدمه من اسلافه وآبائه وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها اهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لاعمال من سبقهم وطغيان الشر الذى وصل اليهم بما اقترفه سلفهم ﴿ قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ واذا ابواب فضل الله لم تغلق دون طالب ورحمته التى وسعت كل شئ لن تضيق عن دائب عاب ارباب الاديان فى اقتفائهم اثر آبائهم ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير اسلافهم وقولهم (بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) « انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون »

فاطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده وخلصه من كل تقليد كان استعبده ورده الى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع مع ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته ولا حد للعمل فى منطقة حدودها ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها

بهذا وما سبقه تم للانسان بمقتضى دينه امران عظيمان طالما حرم منهما وهما استقلال الارادة واستقلال الرأى والفكر وبهما كملت له انسانيته واستعد لان يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم ان نشأة المدنية فى اوروبا انما قامت على هذين الاصلين فلم تنهض النفوس للعمل ولم تتحرك العقول للبحث والنظر الا بعد ان عرف العدد الكثير انفسهم وان لهم حقا فى تصريف اختيارهم وفى طلب الحقائق بعقولهم ولم يصل اليهم هذا النوع من العرفان الا فى الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح

وقر رذلك الحكيم انه شعاع سطع عليهم من آداب الاسلام ومعارف المحققين من اهله فى تلك الازمان

رفع الاسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الاديان من الحجر على عقول المتدينين فى فهم الكتب السماوية استئثارا من اولئك الرؤساء بحق الفهم لانفسهم وضنا به على كل من لم يلبس لباسهم ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتب المقدسة ففرضوا على العامة اوا باحوا لهم ان يقرؤا قطعا من تلك الكتب لكن على شريطة ان لا يفهموها ولا ان يطيلوا انظارهم الى ما ترمى اليه ثم غالوا فى ذلك فحرموا انفسهم ايضا مزية الفهم الا قليلا ورموا عقولهم بالقصور عن ادراك ما جاء فى الشرائع والنبوات ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الالفاظ تعبدا بالاصوات والحروف فذهبوا بحكمة الارسال فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا فقال (ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب الا اماني وان هم الا يظنون) «مثل الذين حملوا التوارة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين» أما الاماني ففسرت بالقراآت والتلاوات أي لا يعلمون منه الا ان يتلوه واذا ظنوا أنهم على شيء مما دعا اليه فهو عن غير علم بما أودعه وبلا برهان على ما تخيلوه عقيدة وظنوه دينا واذا عن لاحدهم ان يبين شيأ من احكامه ومقاصده لشهوة دفعته الى ذلك جاء فيما يقول بما ليس منه على بينة واعتسف فى التأويل وقال هذا من عند الله ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا﴾ أما الذين قال انهم لم يحملوا التوارة وهى بين ايديهم بعد ما حملوها فهم الذين لم يعرفوا منها الا الالفاظ ولم تسم عقولهم الى درك ما أودعته من الشرائع والاحكام فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها وطمست عن اعينهم اعلام الهداية التى نصبت بانزالها فحق عليهم ذلك المثل الذى اظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية ان تظهر به مثل الحمار

الذى يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها الا العناء والتعب وقسم الظهر وانبهار النفس وما اشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال فما كان سببا فى اسعادهم وهو التنزيل والشريعة اصبح سببا فى شقائهم بالجهل والغباوة وبهذا التقريع ونحوه وبالدعوة العامة الى الفهم وتمحيص الالباب للتفقه واليقين مما هو منتشر فى القرآن العزيز فرض الاسلام على كل ذى دين ان يأخذ بحظه من علم ما أودع الله فى كتبه وما قرر من شرعه وجعل الناس فى ذلك سواء بعد استيفاء الشرط باعداد مالا بد منه للفهم وهو سهل المنال على الجمهور الاعظم من المتدينين لا تختص به طبقة من الطبقات ولا يحتكر مزيته وقت من الاوقات

جاء الاسلام والناس شيع فى الدين وان كانوا الاقليلا فى جانب عن اليقين يتنابذون ويتلاعنون ويزعمون فى ذلك انهم بحبل الله مستمسكون فرقة وتخالف وشغب يظنونها فى سبيل الله اقوى سبب انكر الاسلام ذلك كله وتصرح تصريحا لا يحتمل الريبة بان دين الله فى جميع الازمان وعلى ألسن جميع الانبياء واحد قال الله « ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين اتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه » « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيأ ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » وكثير من ذلك يطول ايراده فى هذه الوريقات والآيات الكريمة التى تعيب على اهل الدين ما نزعوا اليه من الاختلاف والمشاقة مع ظهور الحجة واستقامة المحجة لهم فى علم ما اختلفوا فيه معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته نص الكتاب على ان دين الله فى جميع الازمان

هو افراده بالربوبية والاستسلام له وحده بالعبودية وطاعته فيما امر به ونهى عنه مما هو مصلحة للبشر وعماد لسعادتهم في الدنيا والآخرة وقد ضمنه كتبه التي انزلها على المصطفين من رسله ودعا العقول الى فهمه منه والعزائم الى العمل به وان هذا المعنى من الدين هو الاصل الذي يرجع اليه عند هبوب ريح التخالف وهو الميزان الذي توزن به الاقوال عند التناصف وان اللجاج والمراء في الجدل فراق مع الدين وبعد عن سنته ومتى روعيت حكمته ولوحظ جانب العناية الالهية في الانعام على البشر به ذهب الخلاف وتراجعت القلوب الى هداها وسار الكافة في مراشدهم اخوانا بالحق مستمسكين وعلى نصرته متعاونين

اما صور العبادات وضروب الاحتفالات مما اختلفت فيه الاديان الصحيحة سابقها مع لاحقها واختلاف الاحكام متقدمها مع متأخرها فمصدره رحمة الله ورأفته في ايتاء كل امة وكل زمان ما علم فيه الخير للامة والملاءمة للزمان وكما جرت سنته وهو رب العالمين بالتدريج في تربية الاشخاص من خارج من بطن امه لا يعلم شيأ الى راشد في عقله كامل في نشأته يمزق الحجب بفكره ويواصل اسرار الكون بنظره كذلك لم تختلف سنته ولم يضطرب هديه في تربية الامم فلم يكن من شأن الانسان في جملته ونوعه ان يكون في مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله الى يوم يبلغ من الكمال منتهاه بل سبق القضاء بان يكون شأن جملته في النمو قائما على ما قررته الفطرة الالهية في شأن افراده وهذا من البديهيات التي لا يصح الاختلاف فيها وان اختلف اهل النظر في بيان ما تفرع منه في علوم وضعت للبحث في الاجتماع البشري خاصة فلا نطيل الكلام فيه هنا

جاءت اديان والناس من فهم مصالحهم العامة بل والخاصة في طور اشبه بطور الطفولية للناشئ الحديث العهد بالوجود لا يألف منه الا ما وقع تحت حسه ويصعب

عليه ان يضع الميزان بين يومه وامسه وان يتناول بذهنه من المعانى مالا يقرب من لمسه ولم ينفث فى روعه من الوجدان الباطن مايعطفه على غيره من عشيره او ابن جنسه فهو من الحرص على ما يقيم بناء شخصه فى هم شاغل عما يلقى اليه فيا يصله بغيره اللهم الا ايدا تصل الى فمه بطعام او تسنده فى قعود او قيام فلم يكن من حكمة تلك الايدان تخاطب الناس بما يلطف فى الوجدان او يرقى اليه بسلم البرهان بل كان من عظيم الرحمة ان تسير بالاقوام وهم عيال الله سير الوالد مع ولده فى سذاجة السن لا يأتيه الا من قبل ما يحسه بسمعه او ببصره فاخذتهم بالاوامر الصادعة والزواجر الرادعة وطالبتهم بالطاعة وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة كلفتهم بمعقول المعنى جلى الغاية وان لم يفهموا معناه ولم تصل مدار كهم الى مرماه وجاءتهم من الآيات بما تعرف له عيونهم وتنفعل به مشاعرهم وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه

ثم مضت على ذلك ازمان علت فيها الاقوام وسقطت وارتفعت وانحطت وجربت وكسبت وتخالفت واتفقت وذاقت من الايام آلاما وتقلبت فى السعادة والشقاء ايلما وايلما ووجدت الانفس بنفث الحوادث ولقن الكوارث شعورا ادق من الحس وادخل فى الوجدان لا يرتفع فى الجملة عما تشعر به قلوب النساء أو تذهب معه نزعات الغلمان فجاء دين يخاطب العواطف ويناجى المراحم ويستعطف الاهواء ويحادث خطرات القلوب فشرع للناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن الدنيا بجملتها ويوجه وجوههم نحو الملكوت الاعلى ويقتضى من صاحب الحق ان لا يطالب به ولو بحق ويغلق ابواب السماء فى وجوه الاغنياء وماينحو نحو ذلك مما هو معروف وسن للناس سننا فى عبادة الله تتفق مع ما كانوا عليه ومادعاهم اليه فصلاتى من تعلق النفوس بدعوته ما اصلح من فاسدها واوى من امراضها ثم لم يمض عليه بضعة اجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتماله وضاقت التى ائتم

عن الوقوف عند حدوده والاخذ باقواله وقرفى الظنون ان اتباع وصاياه ضرب من المحال فهب القائمون عليه انفسهم لمنافسة الملوك فى السلطان ومزاحمة اهل الترف فى جمع الاموال وانحرف الجمهور الاعظم منهم عن جادته بالتأويل واضافوا عليه ماشاء الهوى من الاباطيل هذا كان شأنهم فى السجايا والاعمال نسوا طهارته وباعوا نزاهته اما فى العقائد فتفرقوا شيعا واحدثوا بدعا ولم يستمسكوا من اصوله الا بما ظنوه من أشد أركانها وتوهموه من أقوى دعائمها وهو حرمان العقول من النظر فيه بل وفى غيره من دقائق الاكوان والحظر على الافكار ان تنفذ الى شئ من سرائر الخلقة فصرحوا بأن لا وفاق بين الدين والعقل وأن الدين من أشد أعداء العلم ولم يكف الذاهب الى ذلك ان يأخذ به نفسه بل جد فى حمل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوة وأفضى الغلو فى ذلك بالانفس الى نزعة كانت أشأم النزعات على العالم الانسانى وهى نزعة الحرب بين أهل الدين للالزام ببعض قضايا الدين فتقوض الاصل وتخرمت العلائق بين الاهل وحلت القطيعة محل التراحم والتخاصم مكان التعاون والحرب محل السلام وكان الناس على ذلك الى ان جاء الاسلام

كان سن الاجتماع البشرى قد بلغ بالانسان أشده وأعدته الحوادث الماضية الى رشده فجاء الاسلام يخاطب العقل ويستصرخ الفهم واللب ويشركه مع العواطف والاحساس فى ارشاد الانسان الى سعادته الدنيوية والاخروية وبين للناس ما اختلفوا فيه وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه وبرهن على ان دين الله فى جميع الاجيال واحد ومشيئته فى اصلاح شؤنهم وتطهير قلوبهم واحدة وان رسم العبادة على الاشباح انما هو لتجديد الذكرى فى الارواح وأن الله لا ينظر الى الصور ولكن ينظر الى القلوب وطالب المكلف برعاية جسده كطالبه باصلاح سره ففرض نظافة الظاهر كما أوجب طهارة الباطن وعد كلا الامرين طهرا مطلوبا

وجعل روح العبادة الاخلاص وان مافرض من الاعمال انما هو لما اوجب من التطبع بصالح الملكات (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) (ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا المصلين) ورفع الغنى الشاكر الى مرتبة الفقير الصابر بل ربما فضله عليه وعامل الانسان فى مواعظه معاملة الناصح الهادى للرجل الرشيد فدعاه الى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة وصرح بما لا يقبل التأويل ان فى ذلك رضا الله وشكر نعمته وان الدنيا مزرعة الآخرة ولا وصول الى خير العقبى الا بالسعى فى صلاح الدنيا

التفت الى اهل العناد فقال لهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين وعنف النازعين الى الخلاف والشقاق على ما زعزعوا من أصول اليقين ونص على ان التفرق بغى وخروج عن سبيل الحق المبين ولم يقف فى ذلك عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة بالبيان بل شرع شريعة الوفاق وقررها فى العمل فأباح للمسلم ان يتزوج من اهل الكتاب وسوغ مؤاكلتهم وأوصى ان تكون مجادلتهم بالتى هى أحسن ومن المعلوم ان المحاسنة هى رسول المحبة وعقد الالفة والمصاهرة انما تكون بعد التحاب بين اهل الزوجين والارتباط بينهما برابط الائتلاف ثم أخذ العهد على المسلمين ان يدافعوا عمن يدخل فى ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن انفسهم ونص على ان لهم ما لنا وعليهم ما علينا ولم يفرض عليهم جزاء ذلك الا زهيدا يقدمونه من مالهم ونهى بعد ذلك عن كل اكراه فى الدين وطيب قلوب المؤمنين فى قوله يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم فعليهم الدعوة الى الخير بالتى هى أحسن وليس لهم ولا عليهم ان يستعملوا اى ضرب من ضروب القوة فى الحمل على الاسلام فان نوره جدير ان يخترق القلوب وليست الآية فى الامر بالمعروف بين المسلمين فانه لا اهتداء الا بعد القيام به ولو أريد ذلك لكان التعبير (على كل واحد منكم بنفسه) لا (عليكم انفسكم) كما هو ظاهر لكل

عربي كل ذلك ليرشد الناس الى ان الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه ولكن ليهديهم الى الخير في جميع نواحيه

رفع الاسلام كل امتياز بين الاجناس البشرية وقرر لكل فطرة شرف النسبة الى الله في الخلقة وشرف اندراجها في النوع الانساني بالجنس والفصل والخاصة وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذي أعده الله لنوعها على خلاف مازعمه المنتحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم وتسجيل الخسة على اصناف زعموا انها لن تبلغ من الشأن ان تلحق غبارهم فأماتوا بذلك الارواح في معظم الامم وصيروا اكثر الشعوب هيا كل واشباح

هذه عبادات الاسلام على ما في الكتاب وصحيح السنة تتفق على ما يليق بجلال الله وسمو وجوده عن الاشباه وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة فالصلاة ركوع وسجود وحركة وسكون ودعاء وتضرع وتسبيح وتعظيم وكلها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الالهي الذي يغمر القوة البشرية ويستغرق الحول فتخشع له القلوب وتستحذي له النفوس وليس فيها شيء يعلو على متناول العقل الا نحو تحديد عدد الركعات او رمي الجمرات على انه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير وليس فيه من ظاهر العبث واستحالة المعنى ما يخل بالاصول التي وضعها الله للعقل في الفهم والتفكير اما الصوم فحرمان يعظم به امر الله في النفس وتعرف به مقادير النعم عند فقدها ومكانة الاحسان الالهي في التفضل بها (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) أما أعمال الحج فتذكير للانسان بأوليات حاجاته وتعهده بتمثيل المساواة بين افراده ولو في العمر مرة يرتفع فيها الامتياز بين الغني والفقير والصعلوك والامير ويظهر الجميع في معرض واحد عراة الابدان متجردين عن آثار الصنعة وحدت بينهم العبودية لله رب العالمين كل ذلك مع استبقائهم في الطواف والسعي والمواقف ولمس الحجر

ذكرى ابراهيم عليه السلام وهو ابو الدين وهو الذى سماهم المسلمين واستقرار يقينهم على ان لا شئ من تلك البقايا الشريفة يضر او ينفع وشعار هذا الاذعان الكريم فى كل عمل (الله اكبر) اين هذا كله مما نجد فى عبادات اقوام آخرين يضل فيها العقل و يتعذر معها خلوص السر للتنزيه والتوحيد

كشف الاسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير (العالم) والكون الصغير (الانسان) فقرر ان آيات الله الكبرى فى صنع العالم انما يجرى امرها على السنن الالهية التى قدرها الله فى علمه الازلى لا يغيرها شئ من الطوارئ الجزئية غير انه لا يجوز ان يغفل شأن الله فيها بل ينبغى ان يحيي ذكره عند رؤيتها فقد جاء على لسان النبى صلى الله عليه وسلم (ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت احد ولا لحياته فاذا رأيتم ذلك فاذكروا الله) وفيه التصريح بان جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد لا يقضى فيه الا العناية الازلية على السنن التى أقامته عليها ثم اماط اللثام عن حال الانسان فى النعم التى يتمتع بها الاشخاص او الامم والمصائب التى يرزؤن بها ففصل بين الامرين فصلا لا مجال معه للخلط بينهما فاما النعم التى ينعم الله بها بعض الاشخاص فى هذه الحياة والرزايا التى يرزأ بها فى نفسه فكثير منها كالثروة والجاه والقوة والبنين او الفقر والضعة والضعف والفقد قد لا يكون كاسبها او جالبها ما عليه الشخص فى سيرته من استقامة وعوج او طاعة وعصيان وكثيرا ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة او الفجرة الفسقة وترك لهم متاع الحياة الدنيا انظارا لهم حتى يتلقاهم ما أعد لهم من العذاب المقيم فى الحياة الاخرى وكثيرا ما امتحن الله الصالحين من عباده وأثنى عليهم فى الاستسلام لحكمه وهم الذين اذا أصابتهم مصيبة عبروا عن اخلاصهم فى التسليم بقولهم (انا لله وانا اليه راجعون) فلا غضب زيد ولا رضا عمرو ولا اخلاص سريرة ولا فساد عمل مما يكون له دخل فى هذه الرزايا ولا فى تلك النعم

الخاصة اللهم الا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جارى العادة كارتباط الفقر بالاسراف والذل بالجبن وضياع السلطان بالظلم وكارتباط الثروة بحسن التدبير فى الاغلب والمكانة عند الناس بالسعى فى مصالحهم على الاكثر وما يشبه ذلك مما هو مبين فى علم آخر

اما شأن الامم فليس على ذلك فان الروح الذي ازدعه الله جميع شرائعه الالهية من تصحيح الفكر وتسديد النظر وتأديب الاهواء وتحديد مطامح الشهوات والدخول الى كل امر من بابه وطلب كل رغيبة من اسبابها وحفظ الامانة واستشعار الاخوة والتعاون على البر والتناصح فى الخير والشر وغير ذلك من اصول الفضائل ذلك الروح هو مصدر حياة الامم ومشرق سعادتها فى هذه الدنيا قبل الآخرة (من يرد ثواب الدنيا نؤته منها) ولن يسلب الله عنها نعمته مادام هذا الروح فيها يزيد الله النعم بقوته وينقصها بضعفه حتى اذا فارقها ذهبت السعادة على اثره وتبعته الراحة الى مقره واستبدل الله عزة القوم بالذل وكثرهم بالقل ونعيمهم بالشقاء وراحتهم بالعناء وسلط عليهم الظالمين اوالعادلين فاخذهم بهم وهم فى غفلة ساهون (واذا اردنا أن نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) امرناهم بالحق ففسقوا عنه الى الباطل ثم لا ينفعهم الانين ولا يجديهم البكاء ولا يفيدهم ما بقى من صور الاعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ولا كاشف لما نزل بهم الا ان يلجؤا الى ذلك الروح الاكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر والصبر والشكر (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وما أجل ماقاله العباس بن عبد المطلب فى استسقائه (اللهم انه لم ينزل بلاء الا بذنب ولم يرفع الا بتوبة) على هذه السنن جرى سلف الامة فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ويأخذ نفسه بما يتبعها من الاعمال الجليلة كان غيره يظن انه

يزلزل الارض بدعائه و يشق الفلك بيكائه وهو ولع بأهوائه ماض في غلوائه
وما كان يغني عنه ظنه من الحق شيأ

حث القرآن على التعليم وارشاد العامة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال
(فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا
اليهم لعلهم يحذرون) ثم فرض ذلك في قوله (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير
و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ولا تكونوا كالذين
تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم يوم تبيض
وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم اكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا
العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها
خالدون تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين ولله ما في السموات
وما في الارض والى الله ترجع الامور) ثم بعد هذا الوعيد الذي يزعج المفرط
وتحق به كلمة العذاب على المختلفين والمقصرين ابرز حال الامارين بالمعروف النهائين
عن المنكر في اجل مظهر يمكن ان تظهر فيه حال امة فقال (كنتم خير امة اخرجت
للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) فقدم ذكر الامر
بالمعروف والنهي عن المنكر على الايمان في هذه الآية مع ان الايمان هو الاصل
الذي تقوم عليه اعمال البر والدوحة التي تتفرع عنها افنان الخير نشر فيها لتلك
الفريضة واعلا منزلتها بين الفرائض بل تنبيها على انها حفاظ الايمان وملاك
امره ثم شدد بالانكار على قوم اغفلوها واهل دين اهملوها فقال (لعن الذين كفروا
من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون
كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) فقذف عليهم اللعنة وهي
أشد ما عنون الله به على مقته وغضبه

فرض الاسلام للفقراء في اموال الاغنياء حقا معلوما يفيض به الآخرون عن

الاولين سد الحاجة المسدم وتفريج الكربة الغارم وتحرير الرقاب المستعبدين وتيسير الابناء السبيل ولم يحث على شيء حثه على الانفاق من الاموال في سبيل الخير وكثيرا ما جعله عنوان الايمان ودليل الاهتداء الى الصراط المستقيم فاستل بذلك ضغائن اهل الفاقة ومحص صدورهم من الاحقاد على من فضلهم الله عليهم في الرزق وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء وساق الرحمة في نفوس هؤلاء على أولئك اليائسين فاستقرت بذلك الطمأنينة في نفوس الناس اجمعين وأي دواء لامراض الاجتماع انجع من هذا ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾

أغلق الاسلام بابي الشر وسد ينبوعي فساد العقل والمال بتحريمه الخمر والمقامرة والربا بتحريمها تالا هوادة فيه

لم يدع الاسلام بعد ما قررنا اصلا من اصول الفضائل الا اتى عليه ولا اماما من امهات الصالحات الا احياها ولا قاعدة من قواعد النظام الا قررها فاستجمع للانسان عند بلوغ رشده كما ذكرنا حرية الفكر واستقلال العقل في النظر وما به صلاح السجايا واستقامة الطبع وما فيه انهاض العزائم الى العمل وسوقها في سبل السعي ومن يتلو القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزا لا ينفد وذخيرة لا تفنى هل بعد الرشد وصاية وبعد كمال العقل ولاية كلا قد تبين الرشد من الغي ولم يبق الا اتباع الهدى والانتفاع بما ساقته ايدي الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين لهذا ختمت النبوات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم واتمت الرسالات برسالته كما صرح بذلك الكتاب وايدته السنة الصحيحة وبرهنت عليه خيبة مدعيها من بعده واطمئنان العالم بما وصل اليه من العلم الى ان لا سبيل بعد لقبول دعوة يزعم القائم بها انه يحدث عن الله بشرع أو يصدع عن وحيه بامر هكذا يصدق نبأ الغيب

﴿ ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما ﴾

«انتشار الاسلام بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ»

كانت حاجة الامم الى الاصلاح عامة فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك لكن يندهش عقل الناظر في احوال البشر عندما يرى ان هذا الدين يجمع اليه الامة العربية من ادناها الى اقصاها في اقل من ثلاثين سنة ثم يتناول من بقية الامم ما بين المحيط الغربي وجدار الصين في اقل من قرن واحد وهو امر لم يعهد في تاريخ الاديان ولذلك ضل الكثير في بيان السبب واهتدى اليه المنصفون فبطل العجب

ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان ولقي من اعداء انفسهم اشد ما يلقى حق من باطل اوذي الداعي صلى الله عليه وسلم بضروب الايذاء وأقيم في وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله وعذب المستجيبون له وحرموا الرزق وطردوا من الدار وسفكت منهم دماء غزيرة غير ان تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور الصبر يثبت الله بمشهدها المستيقنين ويقذف بها الرعب في انفس المرتابين فكانت تسيل لمنظرها نفوس اهل الريب وهي ذوب ما فسد من طباعهم فتجري من مناخرهم جرى الدم الفاسد من المفصود على ايدي الاطباء الحاذقين ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون ﴾ تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام ليحصدوا نبتته ويخنقوا دعوته فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للاقوياء والفقير للاغنياء ولا ناصر له الا انه الحق بين الاباطيل والرشد في ظلمات الاضاليل حتى ظفر بالعزة وتعزز بالمنعة وقعد على ارض الجزيرة اقوام من اديان اخر كانت تدعو اليها وكانت لهم ملوك وعزة

وسلطان وحملوا الناس على عقائدهم بانواع من المكاره ومع ذلك لم يبلغ بهم السعى
نجاحا ولا انالهم القهر فلاحا

ضم الاسلام سكان القفار العربية الى وحدة لم يعرفها تاريخهم ولم يعهد لها نظير
في ماضيهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد ابلغ رسالته بامرر به الى من جاور البلاد
العربية من ملوك الفرس والروم فمزقوا وامتنعوا وناصبوه وقومه الشر واخافوا
السابلة وضيقوا على المتاجر فبعث اليهم البعوث في حياته وجرى على سنته الائمة
من صحابته طلبا للامن وابلاغا للدعوة فاندفعوا في ضعفهم وفقرهم يحملون الحق
على ايديهم وانهالوا به على تلك الامم في قوتها ومنعتها وكثرة عددها واستكمال
عتادها وعددها فظفروا منها بما هو معلوم وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها واستقر
السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين وآباحوا لهم البقاء على اديانهم
واقامة شعائرها آمنين مطمئنين ونشروا احمايتهم عليهم يمنعونهم مما يمنعون منه
انفسهم واموالهم وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزأ قليلا من مكاسبهم على شرائط معينة
وانت الملوك من غير المسلمين اذا افتتحوا مملكة اتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة
يدينها ياجون على الناس بيوتهم وينشون بحالسهم ليحملوهم على دين الظافر
ببرهانهم الغلبة وحجتهم القوة ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين ولم يعهد في تاريخ
روح الاسلام ان كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة يأخذون على انفسهم العمل
بنشره ويقفون مساعيهم على بث عقائده بين غير المسلمين بل كان المسلمون يكتفون
بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم في المعاملة وشهد العالم باسره ان الاسلام كان يعد
بمعاملة المغلوبين فضلا واحسانا عندما كان يعدها الا روبيون ضعة وضعفا رفع
الاسلام ما ثقل من الاتاوات ورد الاموال المسلوبة الى اربابها وانتزع الحقوق من
مغتصبيها ووضع المساواة في الحق عند التقاضي بين المسلم وغير المسلم بلغ امر المسلمين
بعد ان لا يقبل اسلام من داخل فيه الا بين يدي قاض شرعي باقرار من المسلم

الجديد انه اسلم بلا اكراه ولا رغبة فى دنيا وصل الامر فى عهد بعض الخلفاء الامويين ان كره مما لهم دخول الناس فى دين الاسلام لما رأوا انه ينقص من مبالغ الجزية وكان فى حال اولئك العمال سد عن سبيل الدين لا محالة عرف خلفاء المسلمين وملوكهم فى كل زمن ما لبعض اهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة فى كثير من الاعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم الى اعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش فى اسبانيا اشتهرت حرية الاديان فى بلاد الاسلام حتى هجر اليهود اوربا فرارا منها بدينهم الى بلاد الاندلس وغيرها

هذا ما كان من امر المسلمين فى معاملتهم لمن اظلوهم بسيوفهم لم يفعلوا شيأ سوى انهم حملوا الى أولئك الاقوام كتاب الله وشريعته وألقوا بذلك بين ايديهم وتركوا الخيار لهم فى القبول وعدمه ولم يقوموا بينهم بدعوة ولم يستعملوا الاكراه هم عليه شيأ من القوة وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه فما الذى اقبل باهل الاديان المختلفة على الاسلام وأقنعهم انه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجا وبذلوا فى خدمته ما لم يبذل له العرب انفسهم

ظهور الاسلام على ما كان فى جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية وتغلبه على ما كان فيها من رزائل الاخلاق وقبائح الاعمال وسيره بسكانها على الجادة القويمة حقق لقراء الكتب الالهية السابقة ان ذلك هو وعد الله لنبيه ابراهيم واسماعيل وان هذا الدين هو ما كانت تبشر به الانبياء أقوامها من بعدها فلم يجد اهل النصفة منهم سبيلا الى البقاء على العناد فى مجاحدته فتلقوه شاكرين وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين أوقع ذلك من الريب فى قلوب مقلديهم ما حركهم الى النظر فيه فوجدوه الطفا ورحمة وخيرا ونعمة لا عقيدة ينفر منها العقل وهو رائد الايمان الصادق ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية وهى القاضية فى قبول المصالح والمرافق رأوا ان الاسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت

يكاد يعلو بها عن العالم السفلي و يلحقها بالملكوت الاعلى و يدعوها الى احياء ذلك الشعور بخمس صلوات في اليوم وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه و يعد برضا الله و نيل ثوابه حتى في توفية البدن حقه متى حسنت النية وخلصت السريرة فاذا نزت شهوة او غلب هوى كان الغفران الالهي ينتظره متى حسنت التوبة وكملت الاوبة تبدت لهم سذاجة الدين عندما قرؤا القرآن ونظروا في سيرة الطاهرين من حامليه اليهم وظهر لهم الفرق بين مالا سبيل الى فهمه وما تكفي جولة نظر في الوصول الى علمه فتراموا اليه خفافا من ثقل ما كانوا عليه كانت الامم تطلب عقلا في دين فوافاها وتتطلع الى عدد في ايمان فأتاها فالذي يحجم بها عن المسارعة الى طلبتها والمبادرة الى رغيبتها كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التي رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق وكان من حكمها ان لا يقام وزن لشؤن الادنين متى عرضت دونها شهوات الاعلين فجاء دين يحدد الحقوق و يسوي بين جميع الطبقات في احترام النفس والدين والعرض والمال و يسوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة ان تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لامير عظيم مطلق السلطان في قطر كبير وما كان يريده لنفسه ولكن ليوسع به مسجدا فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع اضعاف قيمته رفعت الشكوى الى الخليفة فورد أمره برد بيتها اليها مع لوم الامير على ما كان منه عدل يسمح لليهودي ان يخاصم مثل على ابن ابي طالب امام القاضي وهو من تعلم من هو و يستوقفه معه للتقاضي الى ان قضى الحق بينهما هذا وما سبق بيانه مما جاء به الاسلام هو الذي حببه الى من كانوا أعداءه و رد اليه اهواءهم حتى صاروا انصاره وأولياءه

غلب على المسلمين في كل زمن روح الاسلام فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم الا بعدان يحرجهم الجار

فهم كانوا يتعلمونها ممن سواهم ثم لا يكون الا طائفا يحل ثم يرتحل فاذا انقطعت اسباب الشغب تراجعت القلوب الى سابق مألفته من اللين والمياسرة ومع ذلك بل وغفلة المسلمين عن الاسلام وخذلانهم له وسعى الكثير منهم في هدمه بعلم و بغير علم لم يقف الاسلام في انتشاره عند حد خصوصا في الصين وفي أفريقيا ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع الى الاخذ بعقائده على بصيرة فيما تنزع اليه لا سيف وراءها ولا دعى امامها وانما هو مجرد الاطلاع على ما اودعه مع قليل من حركة الفكر في العلم بما شرعه ومن هذا تعلم ان سرعة انتشار الدين الاسلامى واقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة انما كان لسهولة تعقله و يسر احكامه وعدالة شريعته و بالجملة لان فطر البشر تطلب دينا وترتاد منه ما هو أمس بمصالحها واقرب الى قلوبها ومشاعرها وادعى الى الطمأنينة في الدنيا والآخرة ودين هذا شأنه يجد الى القلوب منفذا والى العقول مخلصا بدون حاجة الى دعاة ينفقون الاموال الكثيرة والاوقات الطويلة و يستكثرون من الوسائل وتنصب الحبائل لاسقاط النفوس فيه هذا كان حال الاسلام في سذاجته الاولى وطهارته التي انشأه الله عليها ولا يزال على جانب عظيم منها في بعض اطراف الارض الى اليوم

قال من لم يفهم ما قدمناه اولم يرد ان يفهمه ان الاسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه السرعة الا بالسيف فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن باحدى اليدين والسيف بالاخرى يعرضون القرآن على المغلوب فان لم يقبله فصل السيف بينه و بين حياته سبحانك هذا بهتان عظيم ما قدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ما تواترت به الاخبار تواترا صحيحا لا يقبل الريبة في جملته وان وقع اختلاف في تفصيله وانما شهر المسلمون سيوفهم دفاعا عن انفسهم وكفا لعدوان عنهم ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك ولم يكن من

المسلمين مع غيرهم الا انهم جاوروهم وأجاروهم فكان الجوار طريق العلم بالاسلام وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال اليه

لو كان السيف ينشر دينا فقد عمل في الرقاب للاكراه على الدين والالزام به مهددا كل امة لم تقبله بالابادة والمحو من سطح البسيطة مع كثرة الجيوش ووفرة العدد وبلوغ القوة اسمى درجة كانت تمكن لها وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الاسلام بثلاثة قرون كاملة واستمر في شدته بعد مجيء الاسلام سبعة اجيال او يزيد فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الاسلام في اقل من قرن هذا ولم يكن السيف وحده بل كان الحسام لا يتقدم خطوة الا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاؤن تحت حمايته مع غيرة تفيض من الافئدة وفصاحة تتدفق عن الالسنة واموال تخلب ألباب المستضعفين ان في ذلك لآيات للمستيقنين

جلت حكمة الله في امر هذا الدين سلسبيل حياة نبع في القفار العربية ابعد بلاد الله عن المدنية فاض حتى شملها فجمع شملها فاحياها حياة شعبية ملية علامده حتى استغرق ممالك كانت تفاخر اهل السماء في رفعتها وتعلو أهل الارض بمدنيتها زلزل هديره على لينه ما كان استحجر من الارواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها قالوا كان لا يخلو امن غلب (بالتحريك) قلنا تلك سنة الله في الخلق لا تزال المصارعة بين الحق والباطل والرشد والغي قائمة في هذا العالم الى ان يقضي الله قضاءه فيه اذا ساق الله ربيعا الى ارض جدبة ليحيي ميتها وينقع غلتها وينمي الخصب فيها افينقص من قدره ان اتى في طريقه على عقبة فعلاها او بيت رفيع العماد فهوى به

سطع الاسلام على الديار التي بلغها اهله فلم يكن بين اهل تلك الديار وبينه الا ان يسمعوا كلام الله ويفقهوه اشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمنا وانحرفوا عن

طريق الدين ازمانا فوقف وقفة القائد خذله الانصار وكاد يتزحزح الى ماوراء لكن الله بالغ امره فانحدرت الى ديار المسلمين امم من التتار يقودها جنكيزخان وفعلوا بالمسلمين الافاعيل وكانوا وثنيين جاؤا لمحض الغلبة والسلب والنهب ولم يلبث اعقابهم ان اتخذوا الاسلام دينا وحملوه الى أقوامهم فعمهم منه ماعم غيرهم جاؤا لشقوتهم فماجوا بسعادتهم

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه الا اشترك فيها واستمرت المجالدات بين الغربيين والشرقيين اكثر من مائتي سنة جمع فيها الغربيون من الغيرة والحمية للدين مالم يسبق لهم من قبل وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة ما بلغته طاقتهم وزحفوا على ديار المسلمين وكانت فيهم بقية من روح الدين فغلب الغربيون على كثير من البلاد الاسلامية وانتهت تلك الحروب الجارفة باجلائهم عنها لم جاؤا وبما ذا رجعوا ظفر رؤساء الدين في الغرب باثارة شعوبهم ليبيدوا ما يشاؤن من سكان الشرق او يستولي سلطان تلك الشعوب على ما يعتقدون لانفسهم الحق في الاستيلاء عليه من البلاد الاسلامية جاء من الملوك والامراء وذوي الثروة والاعلياء جم غفير وجاء ممن دونهم من الطبقات ما قدروه بالملايين استقر المقام بكثير من هؤلاء في ارض المسلمين وكانت فترات تنطفئ فيها نار الغضب وتثوب العقول الى سكينتها تنظر في احوال المجاورين وتلتقط من افكار المخالطين وتتفعل بما تراه وما تسمع فتبينت ان المبالغات التي أطاشت الاحلام وجسمت الاوهام لم تصب مستقر الحقيقة ثم وجدت حرية في دين وعلم وشرع وصنعة مع كمال في يقين وتعلمت ان حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الايمان لا من العوادي عليه ثم جمعت من الآداب ما شاء الله وانطلقت الى بلادها قريرة العين بما غنمته من جلادها هذا الى ما كسبه السفار من اطراف الممالك الى بلادها الاندلس بمخالطة حكمائها وأدبائها ثم عادوا به الى شعوبهم

ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا وأخذت الافكار من ذلك العهد تتراسل والرغبة في العلم تتزايد بين الغربيين ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد ونزعت العزائم الى تمهيد سلطان زعماء الدين والاخذ على ايديهم فيما تجاوزوا فيه وصايا وحرفوا في معناه ولم يكن بعد ذلك الا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو الى الاصلاح والرجوع بالدين الى سذاجته وجاءت في اصلاحها بما لا يبعد عن الاسلام الا قليلا بل ذهب بعض طوائف الاصلاح في العقائد الى ما يتفق مع عقيدة الاسلام الا في التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وان ما هم عليه انما هو دينه يختلف عنه اسما ولا يخالف معنى الا في صورة العبادة لا غير

ثم اخذت امم أوربا تفتك من اسرها وتصلح من شؤنها حتى استقامت امور دنياها على مثل ما دعا اليه الاسلام غافلة عن قائدها الالهية عن مرشدها وتقررت اصول المدنية الحاضرة التي تفاخر بها الاجيال المتأخرة ما سبقها من اهل الازمان الغابرة هذا اطل من وابله اصاب ارضا قابلة فاهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج جاء القوم ليبيدوا فاستفادوا وعادوا ليفيدوا ظن الرؤساء ان في اهاجة شعوبهم شفاء ضغنهم وتقوية ركنهم فباؤا بوضوح شأنهم وضعضعة سلطانهم وما بيناه في شأن الاسلام ويعرفه كل من تفقه فيه قد ظفر به كثير من اهل النظر في بلاد الغرب فعرفوا له حقه واعترفوا انه كان اكبر اساتذتهم فيما هم فيه اليوم والى الله عاقبة الامور

(ايراد سهل الايراد)

يقول قائلون اذا كان الاسلام انما جاء لدعوة المختلفين الى الاتفاق وقال كتابه (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء) فما بال الملة الاسلامية قد مزقتها المشارب وفرقت بين طوائفها المذاهب اذا كان الاسلام موحدا فما بال المسلمين عددوا اذا كان مولاهم وجه العبد وجهة الذي خلق السموات والارض

فما بال جهورهم يولون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا يستطيع من
دون الله خيرا ولا شرا وكادوا يعبدون ذلك فصلا من فصول التوحيد اذا كان أول
دين خاطب العقل ودعاه الى النظر في الاكوان واطلق له العنان يجول في ضمائرها
بما يسعه الامكان ولم يشرط عليه في ذلك سوى المحافظة على عقد الايمان فما بالهم
قنعوا باليسير وكثير منهم اغلق على نفسه باب العلم ظنا منه انه قد يرضى الله بالجهل
واغفال النظر فيما ابدع من محكم الصنع ما بالهم وقد كانوا رسل المحبة اصبحوا اليوم
وهم يتنسمونها ولا يجدونها ما بالهم بعد ان كانوا قدوة في الجد والعمل اصبحوا
مثلا في القعود والكسل ما هذا الذي الحق المسلمون بدينهم وكتاب الله بينهم يقيم
ميزان القسط بين ما ابتدعوه وبين ما دعاهم اليه فتركوه اذا كان الاسلام في قربه من
العقول والقلوب على ما بينت فما باله اليوم على رأي القوم تقصر دون الوصول اليه يد
المتناول اذا كان الاسلام يدعوا الى البصيرة فيه فما بال قراء القرآن لا يقرؤنه
الا تغنيا و رجال العلم بالدين لا يسرفه اغلبهم الا تظنيا * اذا كان الاسلام منح
العقل والارادة شرف الاستقلال فما بالهم شدوهما الى اغلال اى اغلال اذا كان قد
اقام قواعد العدل فما بال اغلب حكامهم يضرب بهم المثل في الظلم اذا كان الدين في
تشوف الى حرية الارقاء فما بالهم قضوا قرونا في استعباد الاحرار اذا كان
الاسلام يعد من اركانه حفظ العهود والصدق والوفاء فما بالهم قد فاض بينهم الغدر
والكذب والزور والافتراء اذا كان الاسلام يحظر الغيلة و يحرم الخديعة و يوعد
على الغش بان الغاش ليس من اهله فما بالهم يحتالون حتى على الله وشرعه وأوليائه
اذا كان قد حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن فما هذا الذي نراه بينهم في السر
والعلن والنفس والبدن اذا كان قد صرح بان الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين
خاصتهم وعامتهم وان الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات
وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر وانهم ان لم يامروا بالمعروف وينهوا عن المنكر

سلط عليهم شرارهم فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم وشدد في ذلك بما لم يشدد في غيره فما بالهم لا يتناصحون ولا يتواصون بحق ولا يعتصمون بصبر ولا يتناصحون في خير ولا شر بل ترك كل صاحبه وألقى حبله على غاربه فعاشوا افذاذا وصاروا في اعمالهم افرادا لا يحس احدهم بما يكون من عمل اخيه كأنه ليس منه وكأن لم تجمعه معه صلة ولم تضمه اليه وشيجة مابال الابناء يقتلون الآباء ومابال البنات يمقتن الامهات اين وشائج الرحمة اين عاطفة الرحم على القريب اين الحق الذي فرض في أموال الاغنياء للفقراء وقد اصبح الاغنياء يسلبون ما بقي في ايدي جاهل البأساء

قبس من الاسلام اضاء الغرب كما تقول وضوءه الاعظم وشمسه الكبرى في الشرق واهله في ظلمات لا يبصرون اصح هذا في عقل او عهد في نقل ألم تر الى الذين تذوقوا من العلم شيأ وهم من اهل هذا الدين اول ما يعلق بأوهامهم اكثرهم ان عقائده خرفات وقواعده واحكامه ترهات ويجدون لذة تهم في التشبه بالمستهزئين ممن سموا أنفسهم أحرار الافكار وبعداء الانظار والى الدين قصر واهمهم على تصفح اوراق من كتبه وسموا انفسهم بأنهم حفاظ احكامه والقوام على شرائعه كيف يجانون علوم النظر ويهزؤن بها ويرون العمل فيها عبثا في الدين والدنيا ويفتخر الكثير منهم بجهلها كأنه في ذلك قد هجر منكرا او ترفع عن دنيئة فمن وقف على باب العلم من المسلمين يجدد دينه كالثوب الخلق يستحي ان يظهر به بين الناس ومن غرته نفسه بانه على شيء من الدين وانه مستمسك بعقائده يرى العقل جنة والعلم ظنة أليس في هذا ما يشهد الله وملائكته والناس أجمعين على ان لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين

الجواب

ربما لم يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم بل من عدة اجيال وربما كان ماجاء في الايراد قليلا من كثير وقد وصف الشيخ الغزالي رحمه الله وابن الحاج وغيرهما من اهل البصر في الدين ما كان عليه مسلمو زمانهم عامتهم وخاصتهم بما حوته مجلدات ولكن قد اتيت في خاصة الدين الاسلامي بما يكفي للاعتراف به بمجرد تلاوة القرآن مع التدقيق في فهم معانيه وحملها على ما فهمه أولئك الذين انزل فيهم وعمل به بينهم ويكفي في الاعتراف بما ذكرته من جميل اثره قراءة ورقات في التاريخ على ما كتبه محققو الاسلام ومنصفو سائر الامم فذلك هو الاسلام وقد اسلفنا أن الدين هدي وعقل من احسن في استعماله والاخذ بما ارشد اليه نال من السعادة ما وعد الله على اتباعه وقد جرب علاج لاجتماع الانساني بهذا الدواء فظهر نجاحه ظهورا لا يستطيع معه الاعمى انكارا ولا الاصم اعراضا وغاية ما قيل في الايراد ان اعطي الطبيب المريض دواء فصح المريض وانقلب الطبيب بالمرض الذي كان يعمل لمعالجته وهو يتجرع الغصص من آلامه والدواء في بيته وهو لا يتناوله وكثير ممن يعودونه أو يتشفون منه ويشمتون لمصيبته يتناولون من ذلك الدواء فيعافون من مثل مرضه وهو في يأس من حياته ينتظر الموت أو تبدل سنة الله في شفاء امثاله كلامنا اليوم في الدين الاسلامي وحاله على ما بينا اما المسلمون وقد اصبحوا بسيرهم حجة على دينهم فلا كلام لنا فيهم الآن وسيكون الكلام عنهم في كتاب آخر ان شاء الله

التصديق بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم

بعد ان ثبتت نبوته عليه السلام بالدليل القاطع على ما بينا وانه انما يخبر عن الله تعالى فلا ريب انه يجب تصديق خبره والايمان بما جاء به ونعني بما جاء به ما صرح به في الكتاب العزيز وما تواتر الخبر به تواترا صحيحا مستوفيا الشرائط وهو

ما اخبر به جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة في امر محسوس ومن ذلك احوال ما بعد الموت من بعث ونعيم في جنة وعذاب في نار وحساب على حسنات وسيئات وغير ذلك مما هو معروف ويجب ان يقتصر في الاعتقاد على ما هو صريح في الخبر ولا تجوز الزيادة على ما هو قطعي بظني وشرط صحة الاعتقاد ان لا يكون فيه شيء يمس التنزيه وعلو المقام الالهي عن مشابهة المخلوقين فان ورد ما يوهم ظاهره ذلك في المتواتر وجب صرفه عن الظاهر اما بتسليم الله في العلم بمعناه مع اعتقاد ان الظاهر غير مراد أو بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة

اما اخبار الآحاد فما يجب الايمان بما ورد فيها على من بلغته وصدق بصحة روايتها اما من لم يبلغه الخبر أو بلغه وعرضت له شبهة في صحته وهو ليس من المتواتر فلا يطعن في ايمانه عدم التصديق به والاصل في جميع ذلك ان من انكر شيأ وهو يعلم ان النبي صلى الله عليه وسلم حدث به أو قرره فقد طعن في صدق الرسالة وكذب بها ويلحق به من اهمل في العلم بما تواتر وعلم انه من الدين بالضرورة وهو ما في الكتاب وقليل من السنة في العمل

من اعتقد بالكتاب العزيز وبما فيه من الشرائع العملية وعسر عليه فهم اخبار الغيب على ما هي في ظاهر القول وذهب بعقله الى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها مع الاعتقاد بحياة بعد الموت وثواب وعقاب على الاعمال والعقائد بحيث لا ينقص تأويله شيأ من قيمة الوعد والوعيد ولا ينقض شيأ من بناء الشريعة في التكليف كان مؤمنا محقا وان كان لا يصح اتخاذه قدوة في تأويله فان الشرائع الالهية قد نظر فيها الى ما تبلغه طاقة العامة لا الى ما تشتهيه عقول الخاصة والاصل في ذلك ان الايمان هو اليقين في الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر بلا قيد في ذلك الا احترام ما جاء على ألسنة الرسل

بقيت علينا مسئلتان وضعتا من هذا العلم في مكان من الاهتمام وما هما منه الا حيث

يكون غيرهما مما اجملنا القول فيه الاولى جواز رؤية الله تعالى في الآخرة والاخرى جواز وقوع الكرامات وخوارق العادات من غير الانبياء من الاولياء والصديقين

اما الاولى فقد اشتد فيها النزاع ثم انتهى الى وفاق بين المنزهين لا مجال معه للتنازع فان القائلين بجواز الرؤية من اهل التنزيه متفقون على ان الرؤية لا تكون على المعهود من رؤية البصر المعروفة لنا في مجري العادة بل هي رؤية لا كيف فيها ولا تحديد ومثلها لا يكون الا ببصر يختص الله به اهل الدار الآخرة أو تتغير فيه خاصته المعهودة في الحياة الدنيا وهو مالا يمكننا معرفته وان كنا نصدق بوقوعه متى صح الخبر والمنكرون لجوازها لم ينكروا انكشافا يساويها فسواء كان ذلك بالبصر الغير المعهود او بحاسة اخري فهو في المعنى يرجع الى قول خصومهم ولكن متى الاسلام بقوم يحبون الخلاف والله فوق ما يظنون

اما الثانية فانكر جواز وقوع الكرامات ابو اسحاق الاسفرايني من أكابر اصحاب ابي الحسن الاشعري وعلى ذلك المعتزلة الا أبا الحسين البصري فقال بجواز وقوعها وعليه جمهور الاشاعرة واستدل الذاهبون الى الجواز بما جاء في الكتاب من قصة الذي عنده علم من الكتاب الواردة في خبر بلقيس من احضاره عرشها قبل ارتداد الطرف وقصة مريم عليها السلام وحضور الرزق عندها وقصة اصحاب الكهف واحتج الآخرون بأن ذلك يوقع الشبهة في المعجزات وأولوا ما جاء في الآيات اما ان ذلك يوقع الشبهة في المعجزات فليس بصحيح لان المعجزات انما تظهر مقرونة بدعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى ولا بد ان تكتنفها حوادث تميزها مما سواها وأما ما احتج به المجوزون من الآيات فلا دليل فيه لانه ما في قصة مريم وآصف قد يكون بتخصيص من الله تعالى لوقوعه في عهد الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولا علم لنا بما اكتنف تلك الوقائع من شؤن

الله في أنبياء ذلك العهد الا قليلا وأما قصة اهل الكهف فقد عدها الله من آياته في خلقه وذكرنا بها لنعتبر بمظاهر قدرته فليست من قبيل ما الكلام فيه من عموم الجواز فبقي البحث في جواز وقوع الكرامات نوعا من البحث في متناول هم النفوس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير وفي مكان الاعمال الصالحة وارتقاء النفوس في مقامات الكمال من العناية الالهية وهو بحث دقيق قد يختص بعلم آخر اما مجرد الجواز العقلي وان صدور خارق للعادة على يد غير نبي مما تتناوله القدرة الالهية فلا اظن انه موضع نزاع يختلف عليه العقلاء وانما الذي يجب الالتفات اليه هو ان اهل السنة وغيرهم في اتفاق على انه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولي لله معين بعد ظهور الاسلام فيجوز لكل مسلم باجماع الامة ان ينكر صدور اي كرامة كانت من اي ولي كان ولا يكون بانكاره هذا مخالفا لشيء من أصول الدين ولا مائلا عن سنة صحيحة ولا منحرفا عن الصراط المستقيم أين هذا الاصل المجمع عليه مما يهذي به جمهور المسلمين في هذه الايام حيث يظنون ان الكرامات وخوارق العادات أصبحت من ضروب الصناعات يتنافس فيها الاولياء وتتفاخر فيها هم الاصفياء وهو مما يتبرأ منه الله ودينه وأولياؤه وعامل العلم أجمعون

خاتمة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيأ ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ وقد فسر الكفر في هذه الآية بكفر النعمة « وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا وانا من المسلمون ومنا القاسطون فمن اسلم

فانك تحمر وارشدا واما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا وأن لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله احدا وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا قل انما ادعو ربي ولا اشرك به احدا قل اني لا املك لكم ضرا ولا رشدا قل اني لن يجيرني من الله احد ولن اجد من دونه ملتحدا إلا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها ابدا حتى اذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من اضعف ناصرا واقل عددا قل ان ادري اقريب ما توعدون ام يجعل له ربي امدا عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم ان قد أبلغوا رسالات ربهم واحاط بما لديهم واحصى كل شيء عددا »

صدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم وحسبنا الله ونعم الوكيل ونعوذ بالله من الشيطان الرجيم وحق الشكر لله رب العالمين الرحمن الرحيم

تمت

الحمد لله المتفرد بالايجاد الحكيم الذي أبدع ما خلقه وأجاد الموصوف سبحانه بصفات التأثير ولا معقب له المنزه جل جلاله عن المماثلة والمشاكلة والصلاة والسلام على سيدنا محمد المفحم بمحاسن حججه المكابرين وعلى آله وأصحابه الذين قاموا بنصرة الدين (أما بعد) فقد وفق الله حضرة العالم العلامة الخير البحر الفهامة بحر ومباحث العلوم بجليل تحقيقاته ذي القدر الخطير الاستاذ الكبير المرحوم الشيخ محمد عبده رحمه الله الى تأليف كتاب في فن التوحيد عرق بابه ولا غرو فزيد الطف من النسيم تربى أوج التحقيق منه طائرا ويدر التدقيق في منازله شاردا جمع فيه من نفائس قواعد هذا الفن وحكم مباحثه الفريدة على وجه حسن ما يبلغ به طالبه غاية مطلوبه ويصل به راغبه الى منتهى مرغوبه وذلك بالمطبعة الخيرية بادارة (السيد محمد عمر الخشاب) حفظه الله لمن

الجامع
الشيخ يوسف توما البستاني
بشارع الفجالة
بمصر

DATE DUE

JAFET LIB.
25 SEP 1980

J. Lib.
29 APR 1984

JAFET LIB.
18 JAN 1989

عبده ،محمد
رسالة التوحيد
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01008531

297.3:A13xA 1924
عبده - محمد
رسالة التوحيد

297.3
A13xA
1924